

المسيح

ومشكلات العصر الحديث

الكتاب الرابع

لرابطة الكتاب المسيحيين
بالشرق الأدنى

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــود ديـــــــاب
جراح بالمستشفى الملكي المصري



المسيح

ومشكلات العصر الحديث

الكتاب الرابع

لرابطة الكتاب المسيحيين
بالشرق الأدنى

تقديم الكتاب

هذا هو الكتاب الرابع من السلسلة السنوية التى تصدرها رابطة الكتّاب المسيحيين بالشرق الأدنى. وفى المقالات التالية يحاول الكاتبون أن يحلّوا بعض مشاكل العصر الحديث على ضوء مبادىء المسيح.

وقد صدر الكتاب الأول من هذه السلسلة متنوعاً فى موضوعاته، على أن تنوعه لم يبلغ حد التباين أو التنافر. وكان أشبه بنبرات مختلفة فى الارتفاع والانخفاض تنسجم معاً فتؤلف « سيمفونية » واحدة رائعة.

وتناول الكتاب الثانى «فجر المسيحية» ـ أوضاع المسيحية فى عهودها الأولى بحيث أوقفت القارىء عند مجمع نيقية. ثم جاء الكتاب الثالث « ضحى المسيحية » ليبدأ من حيث انتهى الكتاب الثانى. وقد دارت أبحاثه حول الكنائس المسيحية التى نشأت فى ديار المشرق، والتى قدّر لها أن تلعب دوراً هاماً فى تاريخ الشرق الأدنى. ونرجو أن يعالج الكتاب التالى النهضات الحديثة فى افريقية وآسيا.

ويسرُّ الرابطة ان تقدم لقراء العربية هذه السلسلة، رافعة أكف الضراعة لكى يجعلها الله حافزاً للتمسك بأهداب الرجاء فى نهضة مسيحية حقة فى ديارنا العزيزة.

محتويات الكتاب

صفحة

شخصية المسيح

(بقلم القس الدكتور ابرهيم سعيد رئيس رابطة الكتّاب المسيحيين
بالشرق الادنى ، وراعى الكنيسة الانجيلية بقصر الدوبارة ، ووكيل
الطوائف الانجيلية بالاقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة)

يجمل بى ، فى غرة كلمتى هذه ، أن أعترف بأننى أسرعت ـ بل تسرّعت ـ حين قبلتُ أن اكتب فى موضوع : « شخصية المسيح » . وقد يشفع فى تسرُّعى هذا ، أننى كنت ـ وما زلت ـ مندفعاً بقوة تكاد تكون لا إرادية ، بجاذبية هذه الشخصية القوية العجيبة، التى هجمت على التاريخ، وأمسكت « بقرون » السنين، فتحكمت فى مصائر الأفراد والجماعات من قاصٍ ودانٍ .مصداقاً لقول المسيح الجليل « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلىّ الجميع ». فالقوة التى تجتذبنى اليه أعظم قدراً ، وأبلغ أثراً من قوة الجاذبية التى تربط الأرض بالشمس . وما أنا سوى ذرة من غبار هذه الغبراء « تستمد كيانها وحياتها من «شمس البر »..

غير أننى ، حين شرعت فى الكتابة عن هذه الشخصية العظمى ، أحسست بثقل المسئولية الملقاة علىّ . فحاولت مراراً أن أعتذر عن الكتابة ، لأنى أرانى أمام حجر ألماسى ثمين متعدّد الجوانب، فى تماثل عجيب ، لكل جانب منه جمال وروعة وبهاء ، بل أجدنى أمام كنز حوى جواهر درية كريمة ، يمسك بعضها بأهداب البعض الآخر ، فكلما قلّبت جوهرة ، بهرتنى جوهرة أخرى تفوقها جمالاً وسنى وسناء، بل ألفيتنى أمام قمم شامخة متسلسلة فوق رأس جبلٍ أشمّ ، كلما بلغتُ إحداهن برزت من ورائها ، وفوقها ، قمة أخرى تتحدّانى فى إغراء برىء ، أن أرقى اليها ، فارتقيت من قمة الى قمة، حتى أنهكنى التعب والجهد ، فاستندت الى أحد الأحجار الجانبية رافعاً وجهى الى العلاء متأملاً ، واذا سحابة نيِّرة تخيِّم علىّ ، فنسيت ما حولى ومَن حولى . . . « ولم أرَ أحداً إلا يسوع وحده » . .

وبعد فترة طويلة فى مداها ، قصيرة فى حلاوتها وعذوبتها ، عُدت أدراجى الى حيث كنت ، عند سفح الجبل ، فمشيت بخطوات متعثرة بالأحجار الصغيرة المتناثرة على الرمال ، وأنا أسأل نفسى وأسائلها : كيف تكتب عن شخصية المسيح من غير أن تعرف ما هى ؟ فما هى شخصية المسيح ؟ ؟

* * *

فقبل أن أتحدث الى القارىء عن شخصية المسيح ، أراه لزاماً علىَّ أن أسأل ما هى « الشخصية » بوجه عام ؟ ؟

اتفقت كلمة علماء التربية الحديثة على أن « الشخصية » هى الموضوع الأول والأخير فى علم النفس ، الذى يهدف فى غايته ومرماه الى دراسة الشخصية ، والكشف عن مكوِّناتها المختلفة ، وطرق تفاعل هذه المكونات فيما بينها . وطرق تأثر الشخصية ومدى تأثيرها فى البيئة المحيطة بها ـ لا فرق فى هذا بين الشخصية السويَّة والشخصية اللاسوية .

واستعمالنا المتداول بيننا عن الشخصية ، لا يجدى كثيراً فى تعرُّف ماهيتها الحقيقية . فقولنا مثلاً : ان انساناً ما ، « لا شخصية له » ، مماثل لقولنا ان انساناً ما ، «لا ضمير له» . فهذه عبارات «عرفية» لا تمتُّ الى المعرفة الحقيقية بصلة . وكذلك قولنا : ان الشمس تشرق فى الصباح وتغرب قبل المساء ، يخالف الحقائق العلمية ، لأن الشمس ثابتة لا تتحرك ، فهى بالتالى لا تشرق ولا تغرب ، وانما هذا اصطلاح قديم متداول ، سطَّرته أقلام الكتاب ، وجرى على ألسنة المحدِّثين منذ القديم ، حين كان يعتقد الناس ، ان الأرض ثابتة والشمس دائرة .

فقولنا ان انساناً ما ، « ذو شخصية » ، يُراد به ان شخصيته قوية .. وقولنا : ان انساناً آخر « لا شخصية له » يُقصد به ان شخصيته ضعيفة . . فالأول قوى التأثير على بيئته ، والثانى سريع التأثر بالعوامل المحيطة به .

أما كلمة « شخصية » فى اللغة العربية ، فهى مشتقة من مصدر « شخص »

وجاء فى « الأساس » : « ومن المجاز شخص الشيء أى عينه » . ويلوح لنا أن المقصود بالشخصية فى اللغة،هو مايعيِّن الفرد،ويميِّزه عما سواه. «وفى الكليَّات»: « الشخص هو الجسم الذى له مُشخِّص » وقد يُراد به الذات المخصوصة والهيئة المعينة فى نفسها تعيُّناً تمتاز به عن غيرها .

أما فى علم النفس ، فثمة تعاريف كثيرة للشخصية ، نجتزيء منها بذكر التعريف الذى قال به بيروت والبورت وموري ، وهو : يُقصد بالشخصية ذلك النظام الكامل من النزعات الثابتة نسبياً التى تميِّز فرداً معيناً ، وتقرر الأساليب المميَّزة لتكيُّفه مع بيئته المادية والاجتماعية .

والشخصية وحدة متكاملة . وعوامل تكييفها — بعضها جسمى ، و بعضها نفسى ، سواء أكان نظرياً أم مكتسباً . وعوامل اجتماعية سواء أكانت داخل البيت أم خارج البيت .

* * *

لقد ذكرت هذه الإلمامة الموجزة عن ماهية الشخصية بوجه عام . فما هى إذاً شخصية المسيح ؟ ؟

لا تقتصر شخصية المسيح على شخص يسوع الانسان الذى وُلد من مريم العذراء فى ملء الزمان — ولا يراد بها «ابن الله» الأزلى « الأقنوم الثانى » فى اللاهوت ، مع أن كلمة « أقنوم » معربة عن اليونانية من مصدر « قم » ومعناها « الذات » أو الشخص، وانما أردنا بها تلك الشخصية الجامعة المانعة التى التقى فيها اللاهوت فى رفعته وروعته وجلاله ، بالناسوت فى وداعته واتضاعه وجماله .

هذه هى الشخصية الفريدة الممتازة التى تحكمت فى البيئة المحيطة بها وصاغتها وكوّنتها ، من غير أن تتحكم فيها البيئة ولا أن تؤثر فيها عن قرب أو بعد . .

فكما تنبعث الزنبقة البيضاء ، وتتسامى بقامتها الهيفاء ، على ما يحيط بها من

تربة سوداء مغمورة بالأوحال ، كذلك ظهر المسيح ، من غير زرع بشرى ، لأن الروح القدس قد هيأ له جسداً فى أحشاء مريم العذراء . .

فى هذا يختلف المسيح عن موسى مثلاً . فلو لم يقم موسى فى وقته لأقام الله عوضاً عنه موسى آخر يأتى بدلاً منه ليحمل الشريعة الأدبية من الله الى الناس فى عصره ـ إلا أن المسيح قد جاء نبعاً للنعمة والحق ـ فلو لم يأتِ هو ، لكان من الواجب أن يأتى هو هو دون سواه . كما قال يوحنا الرسول فى غرة بشارته الخالدة : « الناموس بموسى أُعطى لكن النعمة والحق بيسوع المسيح صارا » ..

غيره قد تحكمت فيه الحياة ونورها ، فأنارت ظلمات حياته أنوار الله ، لكن المسيح هو مصدر الحياة والنور «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . والنور يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه» . «كان هو النور الحقيقى الذى ينير كل انسان آتياً الى العالم» ..

ان شخصية المسيح تعبّر عنها كلمة واحدة .. هى : « الكلمة » . .

وقد هيأت العناية الإلهية أفكار البشر ، لتفهّم هذه اللفظة : « الكلمة » ، قبل أن نطق بها يوحنا البشير . فالعقلية اليهودية كانت قد ألفتها بين كتابات «أنقيلوس» ، الذى ترجم التوراة من العبرية الى الارامية ، فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وفى ترجمته إياها بلفظة « ممرا » عن اسم الجلالة ، تقابلها فى العربية « الكلمة » .

أما العقلية اليونانية فقد كانت مشبعة بكلمة « لوغوس » من كتابات فيلون الفيلسوف اليونانى الاسكندرى . غير أن المعنى الذى تحمله « الكلمة » فى كتابات يوحنا ، يسمو عن معناها فى الأدب اليونانى ، لأن اليونان كانوا يشيرون « بالكلمة » الى الذهن والعقل ، إلا أن يوحنا أراد بها الذات والشخصية . فوصفه المسيح «بكلمة الله » لا يقتصر معناه على أن المسيح هو الكلمة التى نطق بها الله ، بل أراد به أن المسيح هو ذات الله المتكلم . فاذا كان الله قد تكلم بواسطة أنبيائه ، إلا أنه كلمنا فى شخص المسيح . فمن سمع المسيح ، فقد سمع الله بالذات ، ومن رأى المسيح ، فقد رأى الله . .

إن « كلمة » شخص ما، هي ما يعبّر بها عن نفسه، وهي أداة اتصاله بالآخرين ووسيلة تفاهمه معهم . بكلمته يعبّر عما في فكره ، ويلقي أوامره ، ويبلّغ إرادته . «فالكلمة» تحمل معها الشخصية. بما فيها من ذات وصفات فهي اذاً، ليست مجرد أحرف يتصل بعضها ببعض ، لكنها صورة ، ومن وراء الصورة العقل ، ومن وراء العقل الذات ، ومن وراء الذات الجوهر .فالبشرية لا ترتقي وتسمو إلا اذا ارتفعت الى درجة أعلا منها فتملكها الألوهية .

والألوهية لا تجيد التعبير عن كمالها وجمالها إلا اذا تنازلت فتلمست وسيلة محسوسة في الانسان الحي . وهاتان الحقيقتان تحققتا في شخص المسيح .

في عام ٣٢٥ م قرر مجمع نيقية أن يسوع المسيح إله حق . وفي عام ٣٨١ م قرر مجمع القسطنطينية أن يسوع المسيح انسان حق . وفي عام ٤٣١ م قرر مجمع أفسس أن يسوع المسيح الإله الحق والانسان الحق انما هو شخص واحد . وفي عام ٤٥١ م قرر مجمع خلكيدونية أن الرب الواحد يسوع المسيح هو إله حق وانسان حق .

* * *

فما أقوى شخصية المسيح وما أروعها وما أجلّها وما أبدعها !! فقد تحكمت هذه الشخصية القوية في التاريخ : (اولاً) قبل ظهور المسيح . (ثانياً) وفي اثناء تجسده على الأرض . (ثالثاً) وبعد انطلاقه الى المجد

اولاً — لقد تحكمت شخصية المسيح القوية في التاريخ قبل ظهوره وتجسده ، فكما أن الشمس قبل بزوغها تبعث بكوكب الصبح وتلمس بأناملها الرقيقة أجفان الفجر فيرسل أضواء خافتة هادئة منبئاً أهل الثرى لينهضوا من الكرى ، وينفضوا عن وجوههم غبار الليل الرمادي ، ويستعدوا لغسلها بأشعة الشمس الذهبية عند اشراقها ، كذلك أرسل المسيح قبل مجيئه وظهوره على الأرض رسلاً وأنبياء حدثونا عن هذا المجيء المبارك الميمون قبل موعده بمئات القرون . فحدثنا موسى قبيل ظهوره بعشرين قرناً عن مجيء « شيلون » — ومعناه «صاحب الملك» ،وكذلك

أنبأ موسى شعبه قائلاً : « يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلى . له تسمعون » ، وجلّ مزامير داود الذى ظهر قبل المسيح باثنى عشر قرناً عامرة بالنبوات التى تحدثنا عن مجد المسيح ، و بنوته ، وآلامه ، وصلبه ، وملكه ، والوهيته . وكذلك نفخ أشعياء فى بوق نبواته قبل تجسد المسيح بما يقرب من سبعمئة وخمسين عاماً محدثاً إيانا بعبارات لا لَبْسَ فيها ولا غموض عن حياة المسيح على الأرض ، فمن ميلاده من عذراء ـ الى اسمه العجيب «عمانوئيل» الى مسحته وتكريسه لخدمته الجهرية ، الى آلامه الكفارية الفدائية التى انتهت بصلبه ، الى ارتفاعه الى المجد ، و بعده أنبأ دانيال « الرجل المحبوب » بمجيئه ثانية على الأرض وحدثنا عن ملكه السعيد . وخاتمة أنبياء العهد القديم : « ملاخى » قرع بمطرقته الشديدة باب أرضنا التعيسة منادياً إياها أن تستيقظ لتستقبل مليكها المنتظر .

فى العالم الاغريقى تحدث عنه اسكيلوس كبير شعراء الأغريق الأقدمين فى قصيدته الفريدة التى نظمها عن « بروميثيوس المقيَّد » فأنبأ العالم الوثنى بمجىء المسيح قبل ميلاده بستة قرون قائلاً : « لا تتوقعوا خيراً للعالم الا اذا هبط علينا شخص سام عجيب يحمل عنا آلامنا ويتحمل جرم آثامنا » .

من أجل هذا قد تسابقت الأمم على شرف الانتساب اليه فتخاطفته من أيدى اليهود ، فاضحى يسوع الناصرى مسيح كل العالم ، وأصبح ابن اليهودية « مشتهى جميع الأمم» ولا عجب فهو حياة الكل وكل الحياة ، وهو رجاء القلب وقلب الرجاء .

ثانياً — وفى أيام تجسده خرج عن رقعة اليهودية ، بل خرج عليها ، منادياً زعماءها المرائين بالويل والثبور وعظائم الأمور . فمع أنه ولد فى بيت لحم إلا أنه لم يتأثر بالبيئة التى وُلد فيها ، ومع أنه عاش فى الناصرة ، وضاقت به ذرعاً أرض اليهودية ، ومع أنه تألم فى أورشليم وصُلب بين لصين مشاركاً فى هذا العقاب المريع شر الخطاة والمجرمين ، ودفن فى قبر منحوت فى الصخر ، ووضع على فم القبر حجر ،

إلا أنه حطم القبر ، ودحرج عنه ذلك الحجر ، وقام منه قيام عزيز مقتدر ، فصار محط أنظار جميع البشر ، بل اجتذب قلوبهم اليه ، متمماً وعده الصادق الأمين : « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلىّ الجميع » . .

ثم أنه ولد فى أرض اليهود ، غير أنه ليس يهودياً، فاليهود معذبون ومضطهدون فى كل عصر ومصر ، لكن وليد بيت لحم ممجد من الجميع . فقد رسمه الفنانون الايطاليون والبسوه الملابس الايطالية وادعوا أنه « واحد منهم » ، وصوره الروس بملابس روسية وقالوا : « هذا واحد منا » ، وخلع عليه الانجلوسكسونيون ملابس سكسونية قائلين : «هذا واحد منا» ـ نعم هو مسيح الجميع ، فلا يمكن ان تستوعبه مملكة واحدة ، ولا أن يحتكره شعب واحد ـ لأنه أحب الجميع ، فأحبه الجميع. ولا فضل لهم فى هذا لأن الفضل للمتقدم .

منذ أن حظيت أرضنا به حين وطئت قدماه تربتها برزت شخصيته الجامعة المانعة سيما عند قوله «أنا » . سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل .. أما أنا فأقول لكم : « إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب المجمع » : «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر . . . فقد زنى » . « سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث . . وأما أنا فأقول لكم . . . »

فى هذه الكلمة القصيرة « أنا » عبّر عن شخصيته القوية ، الجبارة، الجاذبة ، النيّرة ، الجامعة ، المانعة ... « أنا هو الطريق والحق والحياة » ... « أنا هو باب الخراف». « أنا هو خبز الحياة ». « أنا هو نور العالم».. «أنا هو القيامة والحياة » « أنا هو لا تخافوا » . . فقد يدلنا غيره الى الطريق ـ وقد ينطق غيره بكلمة الحق، وقد يرشدنا غيره الى مسالك الحياة المنيرة . . لكن المسيح قال «أنا هو الطريق ـ ولا طريق الى الآب إلا بى . . أنا هو الحق . . أناهو الحياة »

فى هذه الشخصية الجامعة اجتمعت أشتات البدائع من الصفات المتباينة مما حير

الناس فى أمره ـ فقال فيه بعضهم : «إنه إيليا» ـ مع العلم بأن إيليا قد اتصف بالشدة والعنف . وقال فيه البعض الآخر « إنه أرميا » مع أن أرميا وُصف بالحنان والرقة واللطف . ومن عجب — ولا عجب - أن المسيح التقت فيه الصفات المتباعدة المتباينة من غير أن تطغى أحداهن على الأخرى ، إذ كان وديعاً كالحمل أمام الضعفاء ، وكان شديد البطش كالأسد أمام الأقوياء . كان رحيماً بالمساكين جباراً قوياً على المرائين . كانت كلماته كالنسيم العليل أنعش بها النفوس المزيلة الذابلة أمثال المجدلية و برتيماوس وأرملة نايين ، وكانت تو بيخاته عنيفة كالرعد القاصف فحطم بها قلوب المتعجرفين الماكرين ـ أمثال هيرودس و بيلاطس والكتبة والفريسيين . التقت فى شخصه الفريد أفضل الصفات التى تزين بها الشرقيون من سماحة ورصانة وخشوع وتمجيد ، بأجمل الفضائل التى تحلى بها الغربيون من نشاط وابتكار وتجديد . . ولا عجب فليس هو ابن النيل ولا ابن الفرات، أو الرون ، بل هو « ابن الانسان » .

قال فيه بعض علماء النفس ، انه لم تكن فيه فضائل بارزة ، لأنه لم يكن فيه نقائص ، لأن الفضائل تظهر فى الرجال على حساب الرذائل التى يتصفون بها . أما المسيح فقد كان منبع الفضائل الكاملة ، لأنه لم يكن واحداً من الرجال بل كان نسيجاً فريداً فى ذاته لدرجة أن جوزيف باركر قال : « عرفت الرجال واقرر أن المسيح ليس واحداً منهم، فهو قدوس القديسين وأقدر القادرين»، فيه التقت الرحمة المطلقة بالعدالة الحقة . أمام بهاء جلاله ، أعترف العتاة الجبابرة بأخطائهم ، أما هو فلم يعترف بإثم ولم يقترف ذنباً . فقد غفر للكثيرين من غير أن يستغفر مرة واحدة . . ومع أن أقوى الأقوياء تخونه قواه عند دنو ساعة المنون فيعترف بخطاياه فى الماضى والحاضر ، لكن المسيح حين رفع على الصليب ، لم يعترف بذنب ما ، ولم يستغفر إلا من أجل أعدائه الجهلاء الذين « لم يعرفوا ماذا كانوا يفعلون » !

ومع أن بعض الفضائل تنحرف عند بلوغها ذروة الكمال فتنحدر الى نقائص، أو شبه نقائص ـ فالشجاعة قد تنقلب الى تهوُّر. وقد انقلب حلم موسى الى غضب، وشجاعة بطرس قد انقلبت الى جبن، لكن فضائل المسيح قد تكاملت فيه من غير نقص، لأنه معدن الفضائل، ورمز الكمال. فالفضائل التي كان يتخيلها الناس في القضاء البعيـــد الغامض قد تجسدت فيه، وتأنست في شخصه المجيد، « حلقه حلاوة وكله مشتهيات». كانت نظراته هادئة، لكنها كانت فاحصة مرعبة. كان صوته رقيقاً كالنسيم، وفي الوقت نفسه كان رهيباً كالعاصفة. فقال فيه يوحنا: «صوته كصوت مياه كثيرة». كانت ملامس يديه أنعم من ورق الورد، لكنها كانت في سلطانها أفعل أثراً من قوة الرعد. بملامس يديه الرقيقتين صيَّر التراب تبراً وكوثراً، وخلق من سقط المتاع درّاً وجوهراً. لم يُطفيء فتيلة مدخنة، بل أقام منها منارة لهداية الضالين في مجاهل الطرق. ولم يقصف قصبة مرضوضة بل أقام منها عموداً شاهداً لجمال البرّ وقوة الحق. بصوته الحنون الرقيق كان يجتـــذب الأطفال اليه، و بكلمته القاصفة كالرعد صرخ قائلاً: « لعازر هلم خارجاً » فانتزعه من قبره، ولو لم يناده باسمه: « لعازر »، لخرج معه كل سكان القبور!!

في اتضاعه العجيب، شاطرنا آلامنا وشفى سقامنا، لكنه لم يشاطرنا آثامنا، فكان مثلنا في كل شيء ـ ما عدا الخطية ـ وكان في طهارته وديعاً، فوبخ شرورنا من غير أن يسخر منا. بل كانت طهارته حافزة لنا، على أن نقتفي أثره، فمع انه تسامي علينا في طهره و بره، إلا انه لم يتعال علينا، بل كان مثلنا الأعلى يتسامى فوقنا، ويدعونا الى الاقتراب منه، فلا نحن نلحق به، ولا هو يغيب عنا، وكلما نظرنا اليه ودنونا منه، تساقطت عنا خطايانا كما تتساقط أوراق الخريف، وخفت اثقال مادتنا وعالميتنا، ونحن نزداد صعوداً، وهو يزداد رفعة، حتى يبلغ بنا أوج القداسة والمجد.

ان السر العجيب في هذه الشخصية القوية الجامعة المانعة، هو أنها من طراز فريد لا مثيل له، فليس المسيح إلهاً فحسب، ولا هو بانسان وكفى، وليس هو انساناً

خلع عليه حبُّ الرسل له و إعجابهم به جلال الالوهية ، بل هو الإله الأزلي ـ «يهوه» اسمه الذى صار واحداً منا . فكان معجزة فريدة في ميلاده لأنه ولد من عذراء لم يعرفها رجل ـ بخلاف آدم الذى خُلق من غير رجل ولا إمرأة ، و بخلاف حواء التي خلقت من رجل بغير إمرأة . ومن كان مثله معجزة فى شخصه فلا بد أن يكون ميلاده معجزة . وكذلك كانت حياته معجزة . حاول أعداؤه أن يجدوا فيه عيباً فأرادوا أن يجمعوا الأدلة لهدمه ، فأضحوا فى مقدمة المنادين بجلال كماله وكمال جماله وجلاله . وكذلك كانت تعاليمه معجزات الحكمة ، لأنها دانت للبسطاء وخفيت عن الحكماء والفهماء . فلا عجب إذا كان موته معجزة ـ فمع انه كان هزيمة فى الظاهر ، إلا أنه نصرة فى الجوهر ، لأنه حين كان مرفوعاً على الصليب أضحى جبار الجلجثة الذى يحكم العالم من فوق عرش متضع يقال له الصليب ، فكان وهو مصلوب أقوى من ألف ملك على ألف عرش فى ألف مملكة . لأن القصبة المرضوضة التى وضعها أعداؤه فى يده ساخرين ، أضحت صولجاناً خرّ أمامه أقوى أعدائه صاغرين.

ثالثاً ـ أما بعد انطلاقه الى المجد ، فقد تجلّت عظمة شخصيته فى أجلّ مظاهرها حسناً قال فيه برناردشو الناقد اللاذع : ان اليهود صلبوا المسيح على خشبة ، فاتخذ من هذه الخشبة عصاة ـ طارد بها الأشرار أمامه واجتذب بها اليه قلوب الأبرار .

فما أقوى هذه الشخصية القادرة ـ كدت أقول الساحرة ـ فقد مضى « نيو والاس» الى فلسطين متعقباً آثاره لعله يجد أقوى الحجج التى تفند ما قاله فيه البشيرون ، فخرج من رحلته مؤيداً لا مفنداً ، وأصبح بإنجيله مبشراً بعد ان كان برسالته ملحداً كافراً .

فى كل مكان وطئته قدماه الطاهرتان ، أُقيم معبد لذكراه وتمجيده . وكل شيء مسته يداه الكريمتان قد دُمغ بطابع الخلود . .

وُلد فى بيت نجار ، من عذراء فقيرة ، ولم يسافر خارج أرض الميعاد ، ولم يدخل كلية ولا جامعة ، ولم يكن له أتباع إلا حفنة من صيادى الاسماك ، ومع انه لم يخطب

من منابر عالية ، إلا ان شخصيته القوية الجبارة قد تحكمت فى مصائر الناس ـ حتى الذين لم يجاهروا بإيمانهم به ، فلا يمكنهم أن يتخذوا قراراً هاماً فى حياتهم إلا على ضوء تعاليمه السامية ، ولا يمكن أن يقولوا عن الشر شراً ولا الخير خيراً إلا على ضوء موعظته الجليلة التى ألقاها على الجبل ، لأن كلماته أصبحت انجيلاً ، وانجيله أمسى دستوراً جيلاً فجيلاً ، لا يمكنك أن تتخلص منه ولو لمْ ترد أن تخلصَ به ، فهو يتحكم فى نوع الكتب التى تقرأ ، والصور التى ترى ، والقرارات الحاسمة التى تتخذها فى حياتك سواء أسلمت بهذا أو لم تسلم . لأن هذا الجليلى الناصرى الذى أراح الكثيرين قد أقضَّ مضاجع الملايين بشخصيته القوية التى فرضت نفسها على التاريخ ـ كدت أقول قد طغت على كل من عداها ـ لكنه طغيان جميل محبب ، وسلطان مرغوب فيه لأنه سلطان الحب الأبدى حتى تحيَّر فى أمره المؤرخون، لأنه حول مجرى التاريخ . فقد سجل يوسيفوس بعض حوادث حياته بالتقويم العبرى الذى يبتدىء بفجر الخليقة . وسرد رؤساء الكهنة مواقفه الحاسمة بالتقويم الدينى الذى يبتدىء بعيد الفصح . وأرخ تاسيتوس بعض أعماله بالتقويم اليوليانى الرومانى . لكن المسيح قد تحدى كل تقويم فتساقطت صفحات التاريخ وأوراقه كما يتساقط أوراق الخريف الذابلة أمام العاصفة . وأضحى هو مصدر التاريخ ومسيطراً على الزمان ، وصار ميلاده فاتحة التقويم العميم .

منذ أربعة آلاف عام ويزيد قام فرعون فى مصر وفرض نفسه على التاريخ وسخر ربواتٍ من البائسين لكتابة اسمه بحروف بارزة فى شكل أحجار ضخمة . ومع توالى السنين غطت رمال الصحراء دولة فرعون و بقيت أحجار الأهرام جاثمة على صدره وأضحى اسمه نسياً منسياً .

وقبيل عصر المسيح بنى أغسطس قيصر دولة الرومان على أنقاض دولة الإغريق وحاول أن يفرض نفسه على التاريخ ، بيد أن النسر الرومانى قد تحطم جناحاه فخر صريعاً أمام « حمامة » بيت لحم .

وفى غرة القرن التاسع عشر هبط نابليون أرض مصر وأطاح بقمة الهرم الاكبر آملاً أن يقيم من نفسه فرعونا جديداً على وادى النيل . غير أن نجم نابليون قد أفل فى حياته كما أفل من قبل نجم الاسكندر وقيصر وجانكيزخان وشرلمان . فشهد نابليون ليسوع قائلاً : « لقد أسس الاسكندر وقيصر وشرلمان وأنا امبراطوريات عظمى ولكن بمحض القوة . أما يسوع المسيح وحده فقد أسس دولة من طراز جديد على المحبة الخالصة . والى يومنا هذا نجد الملايين مستعدين لأن يجودوا بحياتهم جود السماح من أجله . لقد خبرت البشر وعرفتهم فأشهد أن كلاً منا انسان لكن يسوع المسيح أعظم من انسان . كان فى مقدورى وأنا فى إبان سطوتى أن ألهب نار الحماسة فى قلوب الكثيرين ليضحوا بحياتهم فى سبيلى ، وذلك بقوة شخصيتى ونبرات صوتى وسحر كلامى وأنا أتقدم صفوفهم . أما يسوع المسيح فقد استطاع بعد مبارحته الأرض بألف وثمانمائة عام أن يطالب الملايين بأن يقدموا له قلوبهم بغير قيد ولا شرط ففاز منهم بكل ماطلب. ولم تقو يد الزمن الجامدة على أن تطفىء جذوة النار المتقدة فى قلوبهم بعد أن باعدت الأجيال الطويلة بينه وبينهم. هذا هو لغز الناصرى الذى يحيرنى ، وسوف أظل حائراً حتى أسلم بأنه شخص إلهى بل هو الله بالذات» .

لم يكتب كتاباً واحداً لكنه قد أذاع انجيله على العالم بألف ومائة لسان . ولد فقيراً وعاش فقيراً ومات فقيراً لكنه قد قام غنياً فأغنى الملايين على مر الأيام والسنين. حين حل بيننا على الأرض لم يكن انجيله قد كتب بعد . وعلى مر الأجيال كتب المؤلفون تراجم لحياته الفريدة يزيد عددها على مائة ألف ـ وكلها شعاعة ضئيلة مشتقة من أنوار انجيله . عطش الى قطرات من الماء لكنه أروى ربوات من العطاش بماء الحياة . جاع حتى افتقر الى بضع سنابل من القمح إلا أنه أشبع الجياع خيرات وأفاض على الجميع وفرة من غناه . أنهكه الجهد مرة فتعب بيد أنه أراح ربوات من الثقيلى الأحمال والمتعبين . لم يدر بميلاده سوى بعض رعاة الأغنام على مروج بيت لحم ـ واليوم يحتفل بميلاده صفوة رجال العلم وخلاصة رجال المال ونخبة

حملة القلم . لم يجد يوم ميلاده مكاناً في المنزل، ولكنه اليوم يجد لنفسه خير المنازل في أفخم المعابد وأجمل القصور، فينحني أمامه ملوك الأمم ورؤساء الدول مترنمين مع ذلك الشاعر العربيّ المعاصر :

قم تكلم يا مريح المتعبين وعــزاء البائسين اليائسين

يا مسيح الله يا نعم المعين يا يسوع المنعش القلب الحزين

* * *

أنت للغبراء من فيض السماء أنت للأحياء خـــبز وغذاء

فاسكب الرحمة في كأس الشفاء من جراحات «وحزن» وشقاء

القس ابراهيم سعيد

المسيح ومدنيتنا الراهنة

(بحث للاستاذ جرمانوس لطفى سكرتير المجلس الطائفى العالى للروم الارثوذكس المصريين بالقاهرة، وصاحب مجلة « نور الحياة » ونائب رئيس رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الادنى)

ان ظهور السيد المسيح على الارض هو أعظم حادث تاريخى عرفته البشرية. لأن شخصه الكريم هو الكشف الإلهى فى الناسوت، وتجلى الأزلى غير المحدود فى العالم الوقتى المتناهى. وهو بدء انسانية جديدة، ومركز التاريخ الذى تتجه اليه خطوط التطوُّر، وتبدأ به سماء جديدة وحياة جديدة.

والمدنية هى التحقيق الواقعى لما فى النفس من قيم. ويتوقف روح المدنية وطابعها على نظام ترتيب القيم داخل النفس.

ولما كان السيد المسيح محرر النفس من موت الخطية، ومجدد قواها ومحييها وفقاً لصورتها الاولى قبل سقوطها تحت سيطرة الشر، فلا بد أن يشمل هذا التحرير والتجديد نظام التركيب القيمى فيها، فيؤدى ذلك بالانسان الى تحقيق ما فى نفسه من قيم تحقيقاً سوياً متناغماً « ككلٍّ متناسق »، فيبدع قيماً جديدة، ويدفعه الى استعمال وسائل المدنية وامكانياتها بطريقة تتناسب وحياته المخلصة ومثلها العليا، والى رفض ما فى المدنية من عقائد وعادات تتنافى والمفهوم المسيحى عن الكون والحياة.

وقد أثبت التاريخ عجز الانسان عن خلق مدنية كاملة تتحقق فيها جميع القيم فى وقت واحد وبصورة متناغمة. غير أنه لم يكف عن المحاولة للوصول الى ذلك منذ فجر التاريخ الى اليوم، فعبّر عن شوقه هذا فى مختلف صور تدينه وعقائده وشرائعه ونظمه الروحية والاجتماعية وفنونه وعلومه.

والمسيحية تؤكد صحة هذه المحاولات وتفسر عدم نجاحها بأن سقوط الانسان في الخطية أدخل الشر الى العالم ، وصدم النفس المخلوقة على صورة الله صدمة عنيفة شوهت قواها دون أن تقضي عليها ، وأسدلت عليها ظلمات دون أن تطوي كل حيويتها، فظلت تحن الى قيم الخير والحق والجمال والى التعبير عنها بمختلف العناصر الدنية وأشكالها. ونلمس هذه الحقيقة عند الشعوب البدائية والمتحضرة على السواء ، في مختلف صور التدين، الطوطم والطابوية والفيتشية والأرواحية وتعدد الآلهة والتوحيد، ووراء نظم التعايش الاجتماعي المختلفة والرسوم والطقوس الدينية والفنون المختلفة.

ان هـذه الافصاحات والمبدعات الحضارية يشوبها النقص دائماً لأن ناموس الخطية الجاثم على أغوار النفس البشرية يحط بكلكله على الانسان، ويعمل على سيطرة الشر على التاريخ كله. وتتجلى آثاره في المرض والألم والموت، والعداوة والغيرة والخصام والحسد والقتل والحرب. ويدور تاريخ البشرية كله على الصراع المرير بين هذين العاملين الخطيرين ، عامل الحنين الى تحقيق قيم الخير والحق والجمال والعيشة بها، وعامل ناموس الخطية الذي يعمل على دفع الانسان الى السلبية والعدم بطريق استعباده للغرائز المنحطة والمطالب المادية وتجاهل المطالب العليا الروحية للنفس . ولم تخلُ مدنية من أثر هذين العاملين .

* * *

وقد تجسد كلمة الله وصار بشراً سوياً، مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية، لحمل عنا نيرها إذ مات على الصليب، ثم قام منتصراً على الشر ونتائجه، ليعطي الحرية والحياة للمؤمنين به العائشين فيه . ومن بعد صعوده الى السماء أرسل روحه القدوس ليبقى مع الـكنيسة المجاهدة على الارض ليظل باب الخلاص والتحرر الحقيقي مفتوحاً أمام كل نفس الى منتهى الدهور. وهكذا ظل تأثيره الخلاق في التاريخ مستمراً بواسطة المؤمنين الواعين إرادته الذين يحيا هو فيهم ، وهم يعملون معه ، لأن المسيحية الحقة ليست تعاليم المسيح الاخلاقية والميتافيسيكية وحدها منفصلة عنه، وانما هي المسيح نفسه

والحياة به وفيه . ولهذا فان المسيح هو النور الأعظم القائم فى مركز التاريخ ، الذى ينير كل انسان آت الى العالم ، وهو الذى يضفى على الحياة معنى ، و يعطى التاريخ هدفاً .

وليس الانسان الخاص الا انساناً جديداً ليس هو باليونانى (الوثنى) ولا هو اليهودى المتزمت المغلق على نفسه ، وانما هو خليقة جديدة . وقد دعى الناس جميعاً ــ بلا تمييز بين ذكر وأنثى ، أو عنصرية وأخرى ، أو بين عبد وحر ، وفقير وغنى ، ــ إلى مدنيّة جديدة متكاملة يشترك الانسان مع الله فى بنائها .

ولم تنكر المسيحية كل ما أبدعه الانسان من افصاحات نفسه فى المدنية ، إلا ما كان منها حافزاً للشر وخطراً على البناء الجديد فى حياة المؤمنين . لهذا نجد المسيح يحارب الشر الموجود فى المجتمع ، وفى الوقت عينه كان يستعمل وسائل المدنية فى الخير ، ولم ينكر العالم كله كما ظن بعض الناظرين الى المسيحية من زاوية ضيقة اذ استندوا على بعض آيات الكتاب المقدس (مثل متى ١٦: ٢٦ ومتى ٧: ٢٥ ناسين الآيات تك ١: ٢٨ ومت ٢٥: ١٤ وغيرها ، كقول الرب للتلاميذ « اذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » (مرقس ١٦: ١٥) .

وقد أحسن العالم الكبير Schnürer حين قال: « إن هناك مبدأين يحتويان على سر قوة المسيحية التى لا تقهر ، وهما الحياة الداخلية المستندة الى قول الرب « إن مملكتى ليست من هذا العالم » ، والوصية السيدية القائلة « إذهبوا وتلمذوا كل الأمم » ، وان تعارض هاتين القوتين وتوحيدهما ليعطيان صورة صادقة للعلاقة بين الكنيسة والمدنية »[1]

و يتجلى اهتمام المسيح باصلاح المدنية وتجديدها فى المسئولية الكبرى الخطيرة التى يلقيها كل على مسيحى وهى أن يكون « ملحاً للأرض » و « نوراً للعالم » وأن يكون المسيحيون « خميرة » صالحة لتخمير الانسانية جمعاء . واذا كانت المدنيّة مركزة على الحياة الطبيعية ، والمسيحية أصولها فى سماء الحياة فوق الطبيعيّة فان هذا

(1) Schnürer , L ' Eglise et la Civilisation 1939 .p. 16

ليس من ناحية المبدأ أساساً للتعارض بين المسيحية والمدنية[1] وقد أوضح الفيلسوف أو يكن R. Eucken هذه الحقيقة بقوله « ان الدين ليس مجرد ارتفاع الى الالوهية وسكون وإنما هو نشاط حيوى فائق واحلال النظام محل الفوضى ، وهو تركيز الذات . . . » وكما قال ترولتش E. Troeltsch « أن العالم القائم فوق هذا العالم هو قوة العالم الراهن » فان الدين هو القوة المهذبة الكبرى التمدنية ، التى بدونها لا يمكن وجود تطور اجتماعى صالح وتقدم فعلى »[2]

* * *

الا أن فريقاً من المتشائمين أنكروا علاقة المسيحية بالمدنية اجمالاً ، وقد دفعهم الى ذلك عوامل مختلفة منها سوء فهم بعض الآيات الانجيلية ، أو انسياقهم الى خرافات مخالفة للمسيحية ، أو تأثرهم بمفاهيم الزرادشتية أو الغنوسطية فى القرنين الثانى والثالث[3] أو أنهم تألموا فى سوء النظام الحكومى وفساد الأخلاق الذى كان سائداً فى العهد الرومانى من الهلينى فهربوا الى التصوف والزهد المتطرف ناكرين الزواج والمجتمع ولكن هؤلاء قلة لا تذكر أمام جمهرة المسيحيين وبخاصة المفكرين منهم الذين أدركوا عظمة الرسالة المسيحية وضرورتها لاصلاح المدنية وخدمة الانسانية فاصطنعوا عناصر الحضارة اليونانية الرومانية المتمازجة التى كانت سائدة فى العصور المسيحية الأولى . وقد استعمل الرسل اللغة اليونانية ومصطلحاتها الفلسفية وملأوها بالمفاهيم المسيحية لتيسير نشر رسالة الانجيل فى كل العالم[4] ونبه كبار المفكرين

---

(١) J. Maritain, Religion et Culture (1930) p. 57.

(٢) براتسيوتس: المسيحية والمدنية (١٩٤١) يونانى ص ٧ — ٩

(٣) يرجع اعتبار المدنية عدوة للمسيحية عند بعض المفكرين المحدثين الى سوء فهم بعض الآيات الكتابية ومن بين هؤلاء روسو وإبسن وتولستوى وكيركجارد وكارل بارت صاحب الحركة اللاهوتية الجدلية وبعض الشيع المسيحية .

(٤) انظر « مرونة الكنيسة » بقلم جرمانوس لطفى (مجلة نور الحياة)

المسيحيين فى القرون الثالث والرابع والخامس الى أهمية الاعتراف من فلسفة اليونان كتمهيد ضرورى لفهم الإلهيات المسيحية نذكر منهم اكليمس الاسكندرى وأوريجانس ويوحنا الذهبى الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتى وغيرهم.

وقد سبق هؤلاء المفكرين الفيلسوف يوستينوس الشهيد النابلسى الفلسطينى فى القرن الثانى الذى تفلسف فى الإلهيات واستند على انجيل يوحنا فى التكلم عن « اللوغوس » الكلمة الموجود قبل كل الدهور الذى ينير كل انسان آتياً الى العالم فرأى فى أفكار كبار للمفكرين والفلاسفة جذوراً واشعاعات للكلمة فى نفوسهم تجلت فيها ومضات من الحقيقة قريبة الشبه بتعليم المسيح متفرقة هنا وهناك فى كتبهم[1]. وقد بهره اخلاصهم فى طلب الحق والخير والجمال وتطلعهم الى المثُل العليا التى تحققت فى المسيح فقال عنهم انهم ليسوا بعيدين عن المسيح، لا بل انهم مسيحيون قبل تجسد الكلمة، إذ بدت فى تعاليمهم جذور كلمة الله واشعاعه. وأضاف يوستينوس ان المسيحية هي وحدها الفلسفة الامينة الصحيحة اللائقة لانها تشمل وتجمع كل ما هو حسن وحق مما قاله السابقون. ثم قال ان كل ما قيل حسناً عند جميع الناس هو لنا نحن المسيحيين (الدفاع الثانى ١١ : ٤)[2] وقد وضع يوستينوس الفيلسوف بهذه الافكار العالية النيرة الأسس القويمة للمذهب الانسانى المسيحى.

فبهذه الروح المتسامحة الواسعة الأفق نظرت المسيحية الى المدنية فلم تعادِ الحضارة اليونانية الكلاسيكية وانما حاربت ما فيها من وثنية وأصنام وانحطاط خلقى[3] وتبنّت الحضارة التى كانت سائدة فى الشرق والغرب وهى الحضارة المتيوننة التى تمازجت فيها ديانات الشرق والنظم اليونانية والنزعات الصوفية الشرقية والافكار

---

(١) يوستينوس — الدفاع الثانى ٨ و١٣ فى مجموعة Patrologie Migne الجزء السادس ص ٣٩٦ و ٤٦٥ و ٤٦٨

(٢) انظر الدفاع الثانى ليوستينوس فى المجموعة السابق ذكرها

(٣) Jorga, La vie Byzantine T.I. p. 64

الفلسفية اليونانية واختلطت فيها عناصر الحضارة الشرقية والغربية مطبوعة بالطابع اليوناني. فنتج عن هذا التبنّي مدنية جديدة عرفت باسم «المدنية المسيحية اليونانية» في الشرق، التي كانت ومازالت أساساً لمدنية الغرب وينبوعاً أصيلاً لمدنية الشرق الأدنى برغم ما طرأ عليها من أحداث تاريخية هامة وتطورات في مختلف قيمها الحضارية. وقد قال السير ريشارد ليفنجستون رئيس كلية Corpus Christi في جامعة اكسفورد: ان المسيحية لم تهدم الحضارة اليونانية وانما وسّعت الفكرة اليونانية عن الانسان وجددت بطريقة اكمل فكرة الله ومركز الدين في الحياة (١) .

والمسيحية في عملها هذا لا تتعصب لمدنية اليونان أو الشرق أو أي مدنية معينة أخرى فتحصر همّها في نشر صورها واتجاهاتها وانما هي في الواقع ثورة باطنية تبدأ من داخل الانسان في أي بيئة كان والى أي حضارة انتمى . فان جوهر المسيحية يقوم أساسياً على تحرير النفس من الخطيئة وتجديدها وإعادتها الى الملكوت الروحي الذي يعيد اتصالها بالآب السماوي في المسيح، وهذا هو همّها الاساسي قبل الاهتمام بما للمدنية من نظم وقوانين وعادات وتقاليد وفنون، لأن إصلاح المدنية المجدي يجب أن يُبنى في نظر المسيحية على إعادة التركيب القيمي داخل نفوس الافراد تركيباً يتفق ومفاهيم المسيحية عن العالم والحياة وأهدافها العليا، وأن تتجه هذه النفوس الى تحقيق القيم بالمحبة وبمساعدة النعمة الإلهية ، وبهذه الحالة يتمكن المؤمن من إبداع قيم جديدة والمساهمة في بناء مدنية صالحة والتمتع بخيرات المدنية القائمة حوله تمتعاً لائقاً بالحياة المسيحية المثلى ، والعمل على ترقية المجتمع والعلم والفن والدولة الخ . ولسنا في حاجة الى التدليل على أهمية هذا التعليم فان المشاهد من اختبارات الانسانية في الماضي والحاضر ان الكثير من القبائل والشعوب والأفراد اصطنعوا قيم المدنية في مظاهرها الخارجية فقط ، سواء كان ذلك في السلوك أو في التقاليد والعادات الاجتماعية والنظم

---

(١) الترجمة اليونانية ص ١١١ Sir R. Livingstone. Greek Ideals and Modern Life

السياسية وغيرها بدون أن يتمثلوا روحها واتجاهاتها المثالية العليا، فكان ذلك نذيراً بهدم هذه المدنية بينهم التى قلدوها من الخارج دون ان يؤمنوا بقيمها و يتبنوا معانيها. وقد ذكر التاريخ بعض القبائل التى سيطرت على بعض البلدان المتمدنة وأدت سرعة امتلاكهم لها وعدم الاستعداد لتمثلها، الى هدم ما تركه لهم أهلها من روائع الفنون والنظم الاجتماعية الراقية وتحطيم مقادس الحياة الروحية والتراث الفكرى الذى خلفه السلف .

و يميّز فلاسفة الحضارة بين المدنية الخارجية و يسمونها Civilisation و بين روحها أو المفاهيم الروحية التى دفعت الى تكوينها وتوجيهها و يسمونها « Culture ثقافة ». وهى تتجلى فى الآداب والفكر والنزعات الجماليّة الخ . فاذا سادت المدنية الخارجية دون روحها كانت أزمة خطيرة فى المجتمعات كالتى نلمسها اليوم فى مدنيتنا الراهنة فى كثير من أنحاء العالم .

* * *

والمسيحية الأولى لم تهتم بسن قوانين وضعية لتفرضها على الناس من الخارج أو لمقاومة الدولة، فإن هذا بعيد كل البعد عن روحانيتها وأهدافها. و يجب التنبه الى أن قانون حياة المسيحى لم يكن شريعة سيناء وانما انجيل الحب والنعمة . ولهذا يخطىء الذين ظنوا أن المسيحية الأولى لم تهتم بتنظيم شئون العالم لانها لم تضع قوانين وضعية. والرد على ذلك هو أن المبادىء الانجيلية أثبت على الزمن من أى قانون وضعى. أما القوانين الوضعية والتقاليد الاجتماعية فمتغيرة وزائلة، وهى تقل وتتضخم وفقاً للظروف التاريخية وحاجات المجتمعات. ويكفى أن نشير هنا الى أن الكنيسة كانت تصلى من أجل الامبراطور الرومانى وجيشه ورجال الحكم، ومن أجل سلامة الدولة ورفاهيتها فى الوقت الذى كانت الحكومة فيه تقبض على المسيحيين وتنكل بهم وتذيقهم شر الاضطهادات وتقتلهم أفراداً وجماعات . فهذه الروح المتسامحة العظيمة كانت تنظر بدون تعصب أو كراهية أو حقد الى ما فى الدولة الرومانية من خير وما فى المدنية

من عوامل صالحة، وتعمل على مقاومة الشر الذى فيها بثورة باطنية، سلمية كانت ومازالت قوتها أقوى من كل البراكين مجتمعة . وفى هذا سر نجاحها وانتصارها على الوثنية لا بقوة السيف بل بقوة الروح والمحبة . وهى بهذه الروح المتسامحة عينها تقدر أن تعيش فى كل مكان وحتى تحت سيطرة نظم الحكم المعادية لها .

واذا تأملنا التركيب القيمى المتوازن وفقاً للمفاهيم المسيحية وجـدنا أن القيم الروحية فى هذا التركيب يجب أن تسود على سائر القيم المادية، أى أن يسيطر الروح على الجسد ومطالبه دون انكار له. وأن يتجه الانسان الى تحقيق القيم الثلاث المطلقة وهى قيم الخير والحق والجمال ، التى هى إشعاع للكشف الإلهى فى المسيح يسوع . « وان رأس هذه القيم و ينبوعها هو الله وهى تنسجم فيه فى وحدة مثالية »[1] .

و يرتفع الانسان بهذا التركيب القيمى الى شخصية (خليقة جديدة)، فيتغلب على العالم وشهواته و يقوى على الألم والموت ، و يرتفع الى دائرة ناموس الحرية التى ليس ناموس ضدها، و يتحرر من جموح الغرائز وعبودية العالم غير أن هذا لا يصده عن الجهاد لتحقيق ملكوت الله سواء فى ترقية المجتمع والعلم والفن والفكر والدولة وكل النظم المدنية . وقد أثبتت فلسفة القيم ان الترتيب السوى للقيم داخل نفس الانسان الذى يدفع الى ازدهار المدنية ونهوضها وتقدمها هو هـذا الترتيب الذى رتبته المفاهيم المسيحية .

فى ضوء هذه الحقائق السابقة يمكننا نقد المدنيـة الراهنة فى عناصرها القديمة وتطوراتها الحالية وفهم مشاكلها القائمة وكيفية معالجتها .

وسنذكر فيما يلى باختصار بعض الخطوط العريضة لتـأثير السيد المسيح فى المدنية بطريق المؤمنين لتكون الشواهد من كثير غيرها نموذجاً صالحاً لفهم أهمية

(١) غريغوريوس بابا ميخائيل ــ القيم العليا الثلاث من وجهة مسيحية (يونانى) ١٩٤٦ ص ٢٥.

العودة الى المسيح فى مدنيتنا الراهنة ليحل مشاكلها و يجدد حياتها و يقيمها بعد أن أصبحت مهددة بالتفكك والانهيار التام .

* * *

لم تكن المسيحية دعوة للهرب من العالم كما ظن بعض مهاجميها . فان صدرها امتلأ بخدام المجتمع فى كل متجهات الحضارة كما هو حادث حتى الآن . يذكر ارنوبيوس فى أواخر القرن الثالث المسيحى « ان المسيحيين كانوا يقبلون على العلم، فظهر منهم خطباء وأدباء ومعلمون وأساتذة الفصاحة ورجال القانون والأطباء والباحثون فى أسرار الفلسفة [1] . لكن تأمل كيف كانت المسيحية تحارب العادات المنافية للحياة الجديدة فى المسيح . فانها كانت مثلاً تشترط قبل المعمودية على المهتدين اليها من معلمى الأدب الوثنى الكلاسيكى أن يتخلوا نهائياً عن وظيفة التدريس فى المدارس العامة الرومانية، لأن مواد الدراسة كانت تستمد من الأساطير الوثنية . وكان على المعلم أن يقدم للآلهة أثينا المكافآت المالية الاولى التى يتقاضاها من التلاميذ الجدد .

وكان الرومان يحتقرون مهنة الطبيب. أما المسيحية فاعتبرتها مقدسة ناظرة إلى المسيح طبيب النفوس والأجساد. وقد غصت دياميس روما بقبور الاطباء المسيحيين الشهداء فى القرون الثلاثة الأولى . وكان بعض القسوس يمارس الطب إلى جانب وظيفته الرعائية [2] وظلت هذه العادة سائدة بين المسيحيين فى الشرق والغرب . وقد حمل لواء الطب فى صدر الاسلام حتى آخر عهد العباسيين مسيحيون من العرب والسريان والروم ، وكانت تقواهم وأماناتهم موضع تقدير الحكام من الرومان وخلفاء الاسلام [3] .

---

(١) Asnob ii , 5

(٢) هولزنر : ـــ بولس ، ترجمة الأرشمندريت كوتسونيس (يونانى) ص ٥٢٨

(٣) الشيخ محمد عبده ، الاسلام والنصرانية، (طبعة المؤتمر الاسلامى) ص١٨

أما فى الفلسفة والأدب والفن فيكفى أن نذكر المدارس اللاهوتية الكبرى فى الاسكندرية وقيصرية وانطاكية والمئات من الكتاب والرهبان ومعلمى الكنيسة الذين أحيوا فى كتبهم ومواعظهم الادب الكلاسيكى، واعتبروا الفلسفة اليونانية تمهيداً ضرورياً لعلم اللاهوت المسيحى، وقد اصطنعوا الأساليب اليونانية والتعبير الفلسفى الكلاسيكى ليعبروا عن عقائد الايمان، نذكر منهم الرسل بولس ويوحنا ولوقا الانجيلى والكتّاب يوستينوس وبانتينوس وكليمس الاسكندرى وأوريجانس واثناسيوس الكبير وأقمار الكنيسة ومعلميها الثلاثة الكبار باسيليوس ويوحنا وغريغوريوس وكيرلس الاسكندرى وأغسطين ومكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقى وفوتيوس وتوما الاكوينى وبسيللوس وغيرهم.

فان لم يكن المسيحيون هم الذين حافظوا على الفكر الفلسفى اليونانى والحضارة، فمن كان الذين نقلوا التراث اليونانى والمسيحى الصوفى إلى العربية فى صدر الاسلام؟

لقد كان المسيحيون من عرب وسريان ومصريين وميتونيين فى الشرق الأوسط هم أول المساهمين الرئيسيين فى بناء الحضارة العربية الاسلامية، وهم الذين نقلوا أمهات الكتب الفلسفية والطبية والعلمية اجمالاً إلى العربية. نذكر على سبيل المثال أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنابن ماسويه المسيحى. وأقام المأمون حنا البطريق أميناً على ترجمة الكتب من علم فى الطب أو فى الفلسفة. وكان الخلفاء والامراء المسلمون يثقون بالمسيحيين ويكلون اليهم تربية أبنائهم، وكانوا يرقونهم إلى أرفع مناصب الدولة. وكان حنين بن اسحق أشهر المترجمين لكتب أريسطو وغيره، وكان أحسنهم دقة وأمانة فى النقل، وكان المأمون يعطيه وزن مايترجم ذهباً [1]. وقد كانت الاديرة فى الشرق والغرب معاهد للفلسفة والادب ومنها نشأت الجامعات الاولى.

---

(١) الشيخ محمد عبده — المصدر السابق

أما الفن فقد استعملته للمسيحية لخدمة أغراضها العليا. وقد قال شارل ديل أحد كبار الباحثين في حضارة بيزنطية « ان المسيحية كان لها أثر كبير في الفن البيزنطي. ومما قاله : « عندما جاء وقت احتاجت فيه المسيحية إلى أشكال فنية سطعت اشراقاً لا مثيل له وأرسلت أشعتها إلى العالم كله ، وأمست بيزنطة المرشد السرى الاكبر للعالم المسيحى كله » (١) وكان من روائع الفن المسيحي كنائس أعظمها كنيسة أغيا صوفيا في القسطنطينية التي قال عنها فيرجسون Fergusson انها أكمل وأروع كنيسة أنشأها المسيحيون. وقال شوازي عنها « ان عبقرية روما وعبقرية الشرق لم تتحدا في يوم من الايام مثلما اتحدتا في هذا الترتيب الهندسي المنسجم، المدهش» (٢)

وقد أثرت المفاهيم المسيحية في الشعر والرسم تأثيراً كبيراً في صدر المسيحية والقرون الوسطى، وتركت لنا تراثاً ضخماً من الاشعار الدينية وغيرها والايقونات. وكذلك أنتجت أروع الالحان والترانيم الدينية التي تجلت في شعر رومانوس الحمصى وقزما ويوحنا الدمشقي، الذي وضع أيضاً علامات لضبط الالحان الموسيقية ونظم الالحان الثمانية المعروفة في الكنيسة الشرقية . ونذكر الكوميديا الإلهية تأليف دانتى التي تعبر عن روح العصر الوسيط وتدل على انها ارتقت إلى أوج المحاولات الادبية السابقة في العصر الوسيط .

وقد أجمع كبار الباحثين على أن العصر الحديث لم يتجاهل هذا التراث العظيم. قال المؤرخ ديل: « ان الفن البيزنطي هو الملهم الاكبر لفناني ايطاليا وفرنسا وللمانيا بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر. (٣) وقال جيلسون: «يجب أن نعتبر من باب الخرافات ذلك الزعم القائل بان عصر النهضة أتى بعد عصر النوم والظلام والضلال».

* * *

(١) Ch. Diehl, Manuel de l'art Byzantin. الجزء الأول ص ٢٣

(٢) Hoisy. Hist. del 'Architecture II, P. 51.

(٣) شارل ديل المصدر عينه ص ٩٦٢

أما أثر المسيحية في النواحي الاجتماعية فكان بالغ الاهمية. فقد كان العالم الروماني اليوناني يحتقر العبيد ، لا بل أن اليونانيين كانوا يقولون ان غير اليوناني بربري أي همجي. وقد أقر أفلاطون وأرسطو نظام الرق. وكان الرومان واليونان يبيحون للرجل قتل أطفاله إذا وجد أنهم ضعفاء أو مشوهي الخلقة .

وجاءت المسيحية فكانت ثورة لاصلاح هذه الحال من الباطن . ونجحت في اصلاحها. فهي لم تصدر قانوناً بالغاء الرق ، وانما دعت الأسياد والعبيد إلى التوبة والحياة الجديدة والاتحاد في جسم المسيح السري . وكان الرومان في صدر المسيحية يعتبرون العبد « شيئاً » ، لا انساناً . وكان بعض السادة يرهقون عبيدهم و يذيقونهم شر أنواع الاضطهاد، لا بل يقتلونهم بدون أن تحاسبهم الدولة على ذلك. و يذكر التاريخ أن أحد السادة الرومان كان يقدم من لحوم عبيده طعاماً لأسماك حديقته . (١)

وقد رفعت المسيحية من قيمة الفرد مهما كان جنسه أو لونه أو طبقته الاجتماعية. لا يوجد حر ولا عبد أمام المسيح، وانما كلنا نحن عبيده . ولكن أية عبودية ؟ ان آخر عبد للمسيح لأعظم حرية من أعظم حر في العالم ، وان نيره لحلو وحمله خفيف (٢) وقد حلت المسيحية مشكلة الرقيق بطريقتها السلمية التهذيبية، اذ كان الأسياد والعبيد في الكنيسة الأولى يجتمعون معاً على مائدة المحبة كاخوة ، و يشتركون معاً في مائدة الرب كأعضاء قديسين في جسم المسيح يكمل بعضهم بعضاً (أفسس ٥:١٩). وقد دعتهم المسيحية أن يعامل بعضهم بعضاً بروح المحبة والاخوة (أفسس ٦ : ٥ ــ ٩ وفليمون ١ : ٨ — ٢١)

وكان من أثر هذه الروح المسيحية ان المسيحيين ــ سواء كانوا سادة أو عبيداً،

---

(١) بلينيوس الكتاب التاسع الفصل ٣٩

(٢) هولزنر : بولس الترجمة اليونانية ص ٤٨١

أغنياء أو فقراء ، حكاماً أو محكومين — كانوا يحترمون الشخصية الانسانية مهما كانت وظيفتها أوحالتها الاجتماعية فى العالم، ولهذا ظهر بين العبيد فى روما مسيحيون تولـوا رعاية المؤمنين وارشادهم. وكان منهم الطبيب والمعلم والفيلسوف فى وقت كان العالم الرومانى لا يعتبرهم بشراً ، وكانوا وسائر اخوانهم فى الكنيسة يتمتعون بالحرية التى تليق بالمؤمنين . وفى ضوء هذه الحقيقة الواقعية ، ما كان يمتنع المسيحيون عن اختيار أشخاص كانوا فى الأصل عبيداً لأرفع الرتب الكنسية، نذكر منهم على سبيل المثال كاليستوس أسقف روما الذى كان عبداً فى الوقت الذى كان يجلس على كرسى روما الأسقفى باباوات من الأسر النبيلة العريقة فى الأريستوقراطية أمثال البابا كورنيليوس .[1]

لقد نجح المسيح فى هدوء وسلام فى هدم الدعائم الفكرية التى يقوم عليها الرق واحتقار المرأة وامتهان حقوق الطفل ، وقد حطم الحواجز التى تثير الحقد والصراع بين الطبقات ، باعطاء قيمة ومعنى لشخصية الانسان ، وقد ارتفعت قيمة الفرد مهما كانت حالته الروحية، وذلك لأن ابن الآب الحبيب نزل من «السماء ليخلص ما قد هلك» . والمسيحية هى التى احترمت حقوق الانسان كاملة لأول مرة فى التاريخ . ولم تجابه الدولة بإصدار قوانين وضعية مخالفة لقوانينها وانما دعت السادة الى احترام حقوق عبيدهم والعطف عليهم، ونصحت العبيد بخدمة أسيادهم باخـلاص وعلمت الناس لأول مرة أن لا يحتقروا أى مهنة طالما انها لا تتعارض مع المثل العليا للمسيحية «عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً» (أفسس ٦ : ٨) .

* * *

ولأول مرة فى التاريخ انضمت الى المسيحية جموع متناقضة متنافرة من كل

(١) هولزنر المصدر عينه ص ٤٨٧

الأجناس والشعوب والثقافات والأديان والمدنيات، فاذا بها تنصهر في أتون المحبة لا لتمحى في جماعات ، هوجاء كما محت بعض المذاهب في مدنيتنا المعاصرة شخصية الأفراد في الجماعات بل لتجتمع في مجتمع لكل عضو فيه شخصيته المميزة في الفضيلة والمهنة والاتجاه والمعاملة بالمحبة لخير المجتمع والانسانية كلها .

لهذا كله كان أثر الروح المسيحية فعالاً في دفع الكنائس الى بذل أموالها العامة لعتق العبيد واندفاع السادة الى إطلاق سراح عبيدهم، بعد أن فتح يسوع بروحه القدوس بصائرهم وأشرق نوره الصافي في قلوبهم .

ولهذا نجد لأول مرة في التاريخ الإحسان المنظم المتعدد النواحي بين المسيحيين كأفراد وكجماعة سواء في العناية بالأرامل واليتامى أو الفقراء والغرباء والأسرى والمرضى.[1] ويذكر المؤرخ افسابيوس أن كنيسة روما سنة ٢٥٢ كانت تنفق على اكثر من ١٥٠٠ شخص وان إحسانها امتد إلى سوريا والبلاد العربية[2] أما كنيسة قرطجنة في أفريقية الشمالية فكانت تجمع مبالغ ضخمة لافتداء الأسرى . واشتهر المسيحيون فيها أيضاً بالعناية بالمرضى ودفن الموتى[3] . ولسنا نعدد المؤسسات الخيرية التي ظهرت في العهد الوسيط في الشرق والغرب ونكتفي بالإشارة الى الأديرة التي كانت تضم الى جانب مساكن الرهبان مستشفى ومضيفة للغرباء وملجأ للفقراء[4] وهذا عدا آلاف المستشفيات المسيحية التي ينفق عليها المسيحيون الى اليوم في كل أنحاء العالم لخدمة المرضى الفقراء ومعالجتهم مجاناً ، إلى جانب آلاف المدارس

---

(١) رسالة كليمس الأولى، ورسالة اغناطيوس الشهيد الى أهل أزمير الفصل ٦ . وكتاب الراعي لهرماس الوصية ٨ : ١٠ ورسالة برنابا ١٩ : ١٠ في مجموعة الآباء الرسوليين في طبعة هرنك وزاهن بنصوصها اليونانية .

(٢) افسابيوس ـ تاريخ الكنيسة ٦ : ٤٣ .

(٣) كبريانوس في كتابه De Mortalitate وفي كتابه Vitag .

(٤) من شاء الاستزادة فليطلع على John A. Ryan, Charity and Charities Catholic Encyclopedia الجزء الثالث ص ٥٩٢ — ٦٠٤ .

والملاجىء والأديرة والارساليات الاجتماعية والروحية التى تبذل فيها بسخاء ملايين الجنيهات، لا للمسيحيين الفقراء وحسب، بل لجميع الشعوب غير المسيحية فى العالم .

ان المسيحية لم تثر الغوغاء والفقراء على الأغنياء والرأسماليين الكبار ورجال الحكم ، ولم تنكر على الناس اقتناء الثروات النقدية والعقارية ، كما زعم بعض الاشتراكيين الماديين ليبرروا الصراع الطبقى الذى يثيرونه. وإنما حاربت سوء استعمال الثروة . وقد كان ولا يزال فى المسيحية أغنياء مؤمنون أعطوا من مالهم بسخاء وسرور للفقراء وللدول وللمؤسسات الاجتماعية، فباركت الكنيسة أعمالهم أمثال كبريانوس فى أفريقية الشمالية وباسيليوس الكبير الذى وهب ملايينه هو وأمه وإخوته لاغاثة المساكين ومعالجة الموبوئين بالبرص. وكان باسيليوس أول من انشأ مدينة للبرص والفقراء والمرضى والعجزة. وقد وهبت أوليمبيا الأرملة الثرية كل أموالها للكنيسة،وكانت من أرقى سيدات بيزنطية . إلا انها تطوعت للخدمة الانسانية كخادمة (شماسة) فى الكنيسة . ويوجد مثل هذه المرأة فى الكنيسة المعاصرة كثيرات بيننا وفى سائر أنحاء العالم .

ومن العجيب أن بعض الكتّاب المعاصرين ينظرون الى المسيح كثائر اجتماعى وحسب، فيتهورون فى تقدير المسيحية متناسين ان الناحية الاجتماعية فى تعليم المسيح هى إحدى النواحى فى المفهوم العام المسيحى. ولا يمكن فصل هذا الجزء عن التركيب القيمى الموحد لهذا المفهوم . وقد نشأ عن هذا الخطأ نظريات وهمية باطلة عن رسالة المسيح ، قال فيها أصحابها ان المسيح ثائر شيوعى ضد الرأسمالية . وقد اضطرهم هذا الزعم إلى التضييق على بعض الآيات الانجيلية والتعامى عن البعض الآخر تبريراً لنظرياتهم ، فصوروا المسيحية بصورة شوهاء تتنافى واختبارات المؤمنين الحيّة في التاريخ وفى أيامنا .

ان الذين يتغنون بوضع قوانين عصرية لحماية حقوق العمال ، ويعتبرون ذلك من نتاج المدنية الراهنة المتأثرة بالمذهب الانسانى الحر ، لينسون أن المسيحية قد

جاهدت فى العصور الوسطى فى سبيل حماية حقوق العمال ونجحت فى استصدار قوانين تحدد سبع ساعات للعمل وتخصيص ٨٠—٩٠ يوماً في السنة للراحة عدا أيام الآحاد، وتعيّين الحد الادنى للأجور[١] . لا بل ان أثر المسيحية فى التشريعات البيزنطية كبير و بخاصة شرائع جوستنيان[٢] .

* * *

أما الأسرة فقد كانت قبل ميلاد المسيح وفى عهده مفككة . وكانت الزوجة عند الرومان « شيئاً » يملكه الزوج وله الحق فى ابقائها على قيد الحياة أو قتلها. وكان الطلاق من حق الزوج وحده. وما كان للزوجة أن ترث زوجها أو ولدها. وكان نظام التسرى شائعاً . وذكر العلماء الذين درسوا الحضارة اليونانية «أن الحياة اليونانية ما كانت تفهم بدون اتخاذ السرارى وعشق الصبيان »[٣] . وكان لعشق الغلمان نتائج خطيرة اذا أنه أدى إلى احتقار الزواج وانتهاك ما للمرأة من حقوق. فلما هبّت الثورة المسيحية على هذه الانحرافات كانت ثورة باطنية لم تعارض من الخارج القوانين الوضعيّة للاحوال الشخصية التى كانت الدولة الوثنية تؤيدها، وانما هبت فى صمت وهدوء كأمواج تحتيّة لأوقيانوس عظيم سرعان ما قلب نظام الأسرة وغيّر حال المرأة ورفع من شأن الأطفال . وقد قضى على التفكك فى الأسرة تعليم المسيحية عن قدسية الزواج واتحاد الرجل والمرأة فيه اتحاداً يدعمه الحب، حب المسيح للكنيسة الذى بذل نفسه لأجلها . واعتبرت المسيحية الزوجين أنهما يعملان مع الله فى انجاب الأطفال وتهذيبهم، فظهرت من عهد باكر جداً آثار هذه العقيدة فى تغيير ما كان فى المدنية من عادات ونظم للأسرة منحطة . وقد أمرت المسيحية بالزواج بواحدة ومنعت نظام التسرى وحرمت الزنى والفسق والانحلال

---

(١) H. Pirenne. La Civilisation Occidentale au moyen age.

(٢) القاضى تروبلونج Troplong رئيس المحكمة العليا بباريس. بحث فى تأثير المسيحية فى القانون المدنى الرومانى (الترجمة اليونانية) ص ٢٣٠ — ٢٣٩

(٣) هولز المصدر عينه ص٥٢٨

الجنسي، ودعت إلى الإعتدال فى الشهوات وقمع الجسد بالرياضة والتقوى، ولم تنكر بذلك الجسد ومطالبه وانما أرادت التسامى به ليخدم أهداف الروح ويكون هيكلا لله . وقد برزت من أيام المسيحية الأولى آثار هذا التعليم فى حياة الأفراد وفى العائلات المسيحية . وقد حمل رسالة الإنجيل أزواج أمثال بريسكلا وأكيلا معاونى بولس (رومية ١٦ : ٤ — ٥) وامتلأ تاريخ الشهداء بأسماء الأزواج والزوجات الذين كانوا يشجعون بعضهم بعضاً ساعة الاستشهاد ، و بعد تحول دولة الرومان الى دولة مسيحية وضعت بتأثير المسيحية قوانين نصت على الزواج بواحدة ومنعت نظام التسرى وحرمت قتل الوالدين لأطفالهما ، وكانت الكنيسة تحول قبل ذلك بقدر الامكان دون قتل الأطفال الأبرياء بيد آبائهم الوثنيين وتلتقطهم من الطرقات وتربيهم .

* * *

لقدسقنا الامثلة السابقة لنبين كيف يصلح السيدالمسيح حياة البشر من الباطن، ليبنى المجتمع على أسس سليمة و يرقى المدنية . و يجب أن لا ننسى أن الذين شربوا من روح المسيح فاضت من حياتهم أنهار محبة وأعمال صالحة أفادت الانسانية . وقد نقلوا فى نفوسهم المجددة المدنية المسيحية أيضاً الى مختلف انحاء العالم ، وما زالوا الى الآن ينقلونها فلا يصدهم عن إداء رسالتهم وعيد ولا تهديد .

فإننا نرى أن الكنيسة القديمة جعلت الاسكندرية مثلاً مركزاً لتبشير أفريقية . وقد نفى الأسقف الاسكندرى ذيونيسيوس الى ليبيا فانشأ فيها مركزاً للاشعاع المسيحى الحضاري، وأرسلت كنيسة الاسكندرية ايذيسيوس وفرومنديوس الى الحبشة .

وفى عهد يوستنيانوس حمل المسيحيون المدنية المسيحية الى بلادالنوبة والسودان و بعض قبائل أفريقية. و قد ظل أهل النوبة مسيحيين الى القرن العاشر الميلادى . ونشرت كنائس انطاكية وأورشليم المسيحية بين العرب . وقد جند الراهب

إبلاريون رئيس أحد أديرة فلسطين ٢٠٠٠ راهب لتبشير القبائل العربية، فانضم الى المسيحية عدد كبير منها وكان لهم أساقفة وقسوس فى مختلف انحاء البلاد العربية.

ونشرت كنيسة القسطنطينية المدنية المسيحيةاليونانية فى بلغاريا وصربيا وروسيا على يد المبشرين ميثوذيوس وكيرلس.

قال شارل ديل « ان بيزنطة لم تنقل الى هذه الشعوب البربرية الدين فقط، وانما نقلت معه أيضاً فكرة الدولة ونظم الادارة والتشريعات الجديدة التى تنظم العلاقات الاجتماعية والتربية والتعليم حتى حروف الهجاء الكيرلسية التى كتبت بها لغتهم »[1]

أما المسيحية فى الغرب فقد هذبت الشعوب الأوربية المتوحشة فغيرت من طباعها الى حد بعيد،وكانت هذه القبائل تغزو العالم المتمدن وبخاصة إيطاليا وتهدده بالخراب فوقفت المسيحية فى طريقها . وقد نقل المسيحية الى انكلترا الراهب أغسطينوس (+ سنة ٦٠٤) والراهب ثيوذوروس السورى من طرسوس (+ سنة ٦٠٩) الذى درس فى أثينا وعين أول رئيس أساقفة لكنتربرى . وقد نشر الثقافة اليونانية بين الانكليز ومن هناك انتقلت إلى بلاد اسكندناوه . و بتأثير المسيحية جعل شارلمان الكبير عاصمة ملكه إيكس لاشابيل مركزاً للمدنية المسيحية بعد أن كان هو ورجال بلاطه أميين . ولو لم يسرع البابا لاون سنة ٤٥٢ الى مادوا لملاقاة أتيلا ، ما كانت نجت إيطاليا من شره. وأنقذ البابا إيطاليا المسيحيةومدنيتها من يد جزريخو ملك الفندال الذى احتل روما ونهبها سنة ٤٥٥ .

وتغلغلت المسيحية فى الهند والصين واليابان وأفريقيا واستراليا وأمريكا على يد مسيحيين حملوا معهم قيم المدنية منسقة وفق إرادة المسيح .

وانه لمن أمجادهذا الدين أن كثيرين من حاملى الروح المسيحية لعبوا دوراً خطيراً

---

(١) Ch. Diehil - les grands problémes de l'Histoire Byzantine, Paris, 1943, p. 17.

وماززالوا يلعبون على مسرح التاريخ وأثروا ويؤثرون فى مختلف المدنيات، وعملوا وما زالوا يعملون على إيقاظ الشعوب وتنويرهم وتثقيفهم وبعثهم من جمودهم. وحركوا النفوس بطريق نشر الكتاب المقدس فى مختلف لغات العالم الحية ولغات القبائل البدائية وهيأوها روحياً لتثور الدوافع المثالية القيّمة فى نفوس مئات الملايين بعد جمود طويل الأمد. فكان ما كان من سرعة انتشار الثقافة ومحو الأمية بينها واندفاعها الى توكيد وجودها والمطالبة بحقوقها الانسانية [1].

ان حملة الروح المسيحى الى أفريقية واسيا واستراليا لم يكونوا نقلة الامراض الحضارية القائمة فى أزمتنا الاخيرة، وانما قامت دعوتهم الاساسية على اليقظة الروحية لان المسيح هو موحد صفوف الشعوب لا مفرقها. وهو الذى أعطى للانسان قيمة عليا مهما كان لونه أو جنسه أو قوميته. والمسيحية كانت وما زالت لا شرقية ولا غربية وانما هى كما قلنا ثورة داخل النفوس تصلح لكل عصر وبيئة لتحرير الانسان من الخطية ودفعه من الباطن أولاً الى إصلاح نظام تركيبه القيمى النفسى والى خلق عالم جديد أفضل.

كما أن فى ضوء هذه الحقيقة ينبغى تقدير ما هو جار اليوم فى أفريقيا وآسيا وبخاصة فى بلادنا العربية حيث يشترك المسيحيون مع إخوانهم المواطنين فى بناء الحضارة وإصلاح المجتمع والدفاع عن الوطن والمطالبة بالحقوق الانسانية، ومقاومة العنصرية، لا بل أن المسيحية هى التى سمت بفكرة القومية فى القرون الحديثة باعطائها قيمة عليا لشخصية الانسان [2].

* * *

لسنا في حاجة الى الاشادة بالأثر المسيحى فى العصور الحديثة فى ترقية الفلسفة

(١) من شاء الاستزادة فليقرأ فصلا عن البعثات الدينية فى الكتاب القيم للاستاذ حبيب سعيد وعنوانه «عشرون قرناً» ص ٢١٦ — ٢٢٤

(٢) Th. Haeker, Virgil 1933 p. 100 أنظر ذلك فى بحث «المسيحية والمدنية» للاستاذ براتسيوتس (يونانى).

والفن والعلم . ويكفى أن نذكر أن معظم الفلاسفة ورجال الآداب والفنون والعلم هم من المسيحيين المؤمنين ، وحتى المذهب الانسانى نفسه الذى اندفع الى معاداة المسيحية والأديان عموماً نشأ فى أول عهده فى أحضان المسيحية . فإن آباء الكنيسة هم أول من حافظوا على الثقافة الكلاسيكية التى يسند الانسانيون اليها مذهبهم من القرون المسيحية الاولى ، وفى الاديرة المسيحية نسخ النساخ من الرهبان المؤلفات الكلاسيكية وحافظوا على مخطوطاتها الى العصور الحديثة . والكنيسة الغربية اصطنعت فلسفة أرسطو فى الفلسفة المدرسية وعلوم اللاهوت . هذا فضلاً عن أن أربعة من البابوات هم نيقولا الخامس وبيوس الثانى وسيكستوس الرابع ولاون العاشر شجعوا أتباع المذهب الانسانى والفنانين . ومجمل القول ان عصر النهضة ، وهو بدء العصور الحديثة ، قد أعدته العصور المسيحية السابقة . وقد قال جيلسون E. Gilson « ان ما قيل عن عصر النهضة بأنه جاء عقب قرون من النوم والظلام والضلال هو افتراء وقول هراء » .

ولا يمكن إذن تجريد ما جرى من تقدم فى العلوم الحديثة والحركات الفلسفية والفنية والاجتماعية وحتى المذاهب والحركات المنحرفة منها ، من عناصر طيبة قد استمدتها من التراث المسيحى . وقد صدق Paul Vignaux فى قوله : « ان أثمن المواد التى استعملت فى بناء المذهب الانسانى قدمتها المسيحية له »(١) . ويهدف المذهب الانسانى الى ترقية الانسان وانمائه فى كل نواحى الحياة . وهذا ما اتجهت اليه الثقافة اليونانية الكلاسيكية وأراد عصر النهضة ابتعاثها . إلا أن الانسانيين قد أساءوا فهم الحضارة اليونانية وجردوها من العنصر الميتافيسيكى وظنوا أن هدف هذه الحضارة هى إعطاء الحرية للانسان فى التمتع بخيرات هذه الدنيا وحدها ، والايمان بحقوق الانسان كاملة . إلا أن المدقق فى الثقافة اليونانية يجد أن أفلاطون وأرسطو قد اعتبرا الله مبدأ أسمى

---

(١) Paul Vignaux, La pensée au moyen age فى بحث عن المذهب الانسانى فى مجلة Aktines سنة ١٩٣٩ ص ١٠٦ — ١٠٨

للاخلاق والنظام الاجتماعى، وهو المبدأ الذى أخرجه الانسانيون من مذهبهم . ثم أن الانسانيين المتطرفين اعتنقوا تعاليم الحضارة اليونانية بدون تمييز ونقد، فى حين أن المسيحية تقبلت هذه الحضارة بعد أن جردتها من النزعات العنصرية ومن امتهان حقوق العبيد والأطفال والمرأة كما قدمنا. ولهذا فان الانسانيوية المسيحية هى المذهب الكامل الذى يعطى الانسان قيمته الحقة ، والميزان الذى تزن به المبادىء الاجتماعية والنظم بالنسبة الى مكانها من التركيب القيمى الحضارى .

وان مبادىء الأخاء والمساواة والحرية التى ادعتها الثورة الفرنسية لتجد فى الانسانيوية المسيحية أساسها وتبريرها الحقيقى مع سائر الحقوق الأخرى الانسانية ، كحق التأمين على حياة الشخص ، وحق العمل ، وانشاء الأسرة، وحرية المعتقد ، وحرية الفكر الخ[1] ولقد قال وليم تمبل بشىء من المبالغة : « ان المسيحية هى دين مادى اكثر من سائر الديانات » ، وذلك لأنها لا تتجاهل حاجات الانسان المادية والجسدية وانما تعترف بأن لهذه الحاجات رسالة عليا وتعطيها مكانها اللائق فى النظام المسيحى للقيم[2] .

* * *

وعندما رأى انسان العصور الحديثة النجاح الذى بلغه العقل فى درس الطبيعة اتجه الى تقديس العقل وجعله الحكم الوحيد لكل إبداع فنى أو فكرى، وأهمل فى الوقت عينه سائر الوظائف النفسية. ولم يستطع العقل إدراك المظاهر الحضارية ففضل الناس نقدها ، وجاء النقد العقلى لها سلبياً عند مفكرى عهد التنوير .

و بتأثير هذه العوامل تفككت العناصر التى قدمها الماضى لبناء المدنية الحديثة. وقد تفرع عن الانحراف فى المفاهيم الجديدة، المذاهب الفردية والشكية واللا أدرية والمذهب النسبى، وتسرب أثر ذلك الى حياة الجماعات والشعوب وذلك بعد ظهور

(١) القسم الثانى ص ٣٠ The Lambeth Conference 1948

(٢) المصدر السابق ص ٩٧

المطبعة وتيسير أسباب المواصلات ، واتجهت هـذه النزعات والمذاهب الى العدمية والإلحاد ووصلت الى الأوج عند نيتشه الذى أعلن أن الله قد مات نهائياً .

وقد حدث أثناء الثورة الفرنسية و بعدها محاولات لمحو الدين المسيحى ومفاهيمه من حياة الانسان الحديث و بخاصة فى القرن التاسع عشر الذى سيطرت فيه المذاهب المـادية ، وقد قامت على أسسها دعوات ومذاهب اجتماعية واقتصادية وسيكولوجية اعتبرت الدين وهماً أو خرافة أو أفيوناً لتخدير الشعب . وحار بت هذه المذاهب الأديان إجمالاً و بخاصة الدين المسيحى، وحاول بعض الـكتـاب فى القرن التاسع عشر فصل يسوع عن شخصية المسيح واعتباره شخصاً لم يكن له وجود تاريخى، وحاول آخرون تجريد شخصية المسيح من العنصر الميتافيسيكى والدعوة الى تبنى الأخلاق المسيحية وحسب .

* * *

وقد نتج عن تعدد الإختراعات وتحسين الآلات من القرن التاسع عشر حتى اليوم أن ظهرت الرأسمالية الجديدة والمبـدأ الحر فى الاقتصاد « Liberalisme » . وسار الاقتصاد الحر فى القرن التاسع عشر على نواميس كالنواميس الطبيعية ، ليس فيها مكان للاحكام الدينية والفكرية والخلقية ، وظهر علم الاقتصاد السياسى مجرداً من أى دعوة أخـلاقية . وأدت هذه الحرية إلى تضخم الرأسمال الخاص ودفع إلى نمو النزعة الفردية المادية . واتجهت هذه الفردية إلى إنمـاء الرأسمال الشخصى على حساب الآخرين بدون احترام للعدل ومبادىء المحبة .

وكانت الدولة بمثابة حارس فقط يحرس هذه الرأسمالية . وقد اشترى الرأسماليون الآلات الضخمة وأنشأوا المصانع وجذبوا من الأراضى الزراعية عـدداً كبيراً من العمال أكثرهم من الأطفال والنساء ودفعوا لهم أجوراً منخفضة محددة على أسـاس ناموس العرض والطلب . وأدت هذه الرأسمالية المادية البعيدة عن الروح المسيحية إلى نشأة الحركة العمالية ، التى قامت لتدافع عن حق العمال الذين كانوا يعملون فى

النصف الأول للقرن التاسع عشر ١٧ ساعة يومياً(١). وقد اندفع العمال إلى المطالبة بحقوقهم وقامت الاشتراكية الماركسية تعدهم بالسعادة والرفاهية. وجاء « الصراع الطبقي » نتيجة للاقتصاد الحر المعادى للمسيحية. ولكن الماركسية اتهمت زوراً وبهتاناً أن المسيحية تؤيد الرأسمالية مع أن الواقع الذى لا ريب فيه أن المسيحية لا تحرم الملكية ولا الثروة فى حد ذاتها، وانما تحرم وترفض إساءة استعمالها.

ولا شك أن المسيحية لا ترضى بوقوع ظلم على أى طبقة أو جماعة أو شعب من الناس، فهى أول من أعطى مفهوماً واضحاً للحقوق الانسانية الكاملة. ولكن هوس الناس بما توصل اليه العلم من نجاح فى القرن التاسع عشر وسيطرة الفلسفة المادية و بروز نظرية التطور، كل ذلك أخفت صوت المسيحية إلى حين.

وقد تنبأ العلماء والفلاسفة الماديون فى القرن التاسع عشر قائلين ان القرن العشرين هو قرن السلام والاستقرار والرفاهية. ولكن سرعان ما خابت آمالهم سنة ١٩١٤ يوم نشبت الحرب العالمية الأولى وما عقبها من هزات وانقلابات ثورية وحرب عالمية ثانية واضطراب عالمى شمل كل المدنية ومظاهرها.

ولا ريب فى أن العلم قد نجح كثيراً فى تحسين الصحة وتوفير غلات الأرض وتيسير أسباب الراحة والاتصال بالعالم اتصالاً مادياً وروحياً وفكرياً. ويتجه الآن إلى الصعود بالانسان إلى الكواكب. وقد آمن الانسان بقدرته على الحصول على السعادة بمفرده دون مساعدة الله، وثمل بما اكتشفه من قوى الطبيعة واستغلاله لها. وقد أوجد مدنية تكنية إلا أنه أصبح فيها للآلة عبداً. وأخذت المذاهب المادية والسرعة التى يتسم بها عصرنا تشدّه الى الحياة السطحية شداً، وقد زادت الحروب والثورات وسرعة تقلب الاحوال من مخاوف من المستقبل الغامض، فزاد حرصه على العبّ من اللذات المادية وغرقت نفسه فى أنانية كافرة، فقام يطلب المنفعة واللذة لذاته وحدها حتى كاد يفقد فى كثير من البلدان معانى الاسرة والفضيلة والشرف والكرامة والصداقة.

* * *

(١) Ch. Gide Ch. Rist, Histoire de doctrines économiques.

ولقد أصبح التاريخ فى عصرنا هذا عالمياً بسبب سرعة المواصلات والبرق والتليفون والطائرات السريعة ، فصغر العالم وشعر الانسان بالضيق بسبب كثافة السكان .

وظن الانسان أننا دخلنا مرحلة جديدة من الثقة ، واعتقد أن الحياة مقيدة داخل حدود عقله الضيق بما توصل اليه من تقدم فى العلم بأسرار المادة والتحليق حول الأرض واختراق الفضاء .

واثرت التكنية وقوى الانتاج جذرياً فى مضامين الحياة الاجتماعية والفردية . يقول رومانو جوارنينى فى كتابه عن «نهاية الأزمنة الحديثة» : « لقد انتهت الآن الأزمنة الحديثة . فعصرنا لا يحمل الآن أى اسم لشخص أو لصوت . وعالمية التاريخ الحديث ليس لها مثيل فى الماضى . وهذا بلا شك أساس لفهم عصرنا . والسمة التى تتميز بها حياتنا هى التحرر من الخضوع لأى سلطة ولكن بدون أى اتجاه واضح . وسقطت معاييرنا القديمة ، ويتضح هذا فى الفوضى التى نشاهدها فى الفن الحديث أو الاخلاق الاجتماعية . وقد تسرب هذا الى بعض الكنائس ففقدت صورة التدين فيها عبادة طقسية خارجية فقدت معانيها . ولقد فقد الانسان للمعايير فى كل مظاهر الحياة ، فكل شىء هو الآن فى صدام ، صدام الغايات والوسائل ، والفرد مع الجماعة ، وقوانين السياسة مع نواميس الاقتصاد ».

ويرجع الفيلسوف نقولا برديايف أسباب هذه الأزمة الى عصر النهضة مثل كبار دارسيها من المفكرين المعاصرين فيقول « ان الميول والنزعات التى لابست هذه الفترة قد أدت بنا أخيراً فى عصرنا هذا الى نتائجها المنطقية المحتومة ، فإننا نحيا فى ظل حضارة آلية لا تفهم شيئاً من القيم العليا غير اللذات والرقى المادى »[1].

وبرديايف يرى أن التكنية إفصاح لقوة الانسان ونظام سيطرته فى العالم وتعبر عن قوة ابداعه وروح اختراعه. ويجب الاعتراف بها كقيمة ، وكخير ... وأن من سيطرة هذه التكنية على العناصر الطبيعية تنشأ المدنية. ويضيف قائلاً : ولكن التكنية لا تساهم

---

(١) الأستاذ حبيب سعيد ، أعلام الفكر الأوربى ص ٨٠

فى تحرير الانسان وانما تضعفه وتستعبده لأنها « تمكّين » حياته وتطبعها بطابعها[1]

. والواقع أن تقدم العلوم والفنون الصناعية ما كان لينتهى بالانسان فى مدنيتنا الراهنة الى هذا القلق والشقاء والاضطراب النفسى وفقدان المعايير لو لم ينحرف عصر «النهضة» ، فيقدم للانسانية مفاهيم جديدة عن الحياة والكون مشوبة بالنقص المرعب إذ حذف منها العنصر الدينى الميتافيسيكى ، ووضع الأسس التى طورت الى العدمية التامة فى القرن الماضى والحاضر التى قامت عليها مذاهب سيكولوجية وفلسفية واجتماعية متطرفة خنقت قيمة الشخصية المثلى ، وهبطت بالانسان الى الجماعية التى هضمت فرديته وأسكتت قيمه العليا الروحية فأمسى عبداً للآلة ، عبداً لسخرة الدولة ، ووحدة اقتصادية ، وعبداً للشهوات الدنيا ينظر الى الكمية دون الكيفية ويحيا فى سطحية ومدنية التكنية الخارجية دون الحضارة الروحية . وقد تأمل الفيلسوف الأسبانى الكبير أسباب الأزمة وانتهى الى القول «بان عصر النهضة هو عودة موجة البربرية الى المدنية »[2] . وقد أصاب .

* * *

ولو أردنا ذكر النتائج المرعبة التى انتهت اليها حياة الملايين من هؤلاء «المتمدنين» السطحيين فى مختلف أنحاء العالم اليوم لضاق بنا المجال . أما بلادنا العربية فانها لم تنجُ للأسف من تأثير الأزمة فى المدنية الأوروبية الى حد بعيد لأن العالم الاسلامى كان قد صمت بعد سقوط الدول الاسلامية وسقط العرب تحت نير الأتراك ، فساد الظلام على حياتنا وركدت الحركات الفكرية . ثم جاءت السيطرة الأوربية وتأثرنا بالمدنية الغربية ومشاكلها وما زلنا الى الآن تحت تأثيرها بعد أن أصبح العالم كله وحدة تاريخية يهتز من أوله الى آخره بالأزمات التى تحدث فى أى مكان من العالم. فقد استحال الكثير من تقاليدنا القديمة الى مظاهر شكلية فقدت معانيها الأولى، وهزت كياننا الحروب والاضطهادات وفساد الحكام وسرعة تقلب الأحوال

(١) نقولا برياديف — مصير الإنسان الترجمة اليونانية ص ٣١١

(٢) Otega y Gasset , Idées et Croyanees

السياسية والاقتصادية .فدفعت بالكثيرين الى الاكتفاء بالمتع الجسدية واللذات المادية دون غيرها . وجاءت المذاهب المادية ، والنظريات الجنسية الفرودية الاباحية والصحافة والسينما والأدب المنحل ، فجرفت الكثير من الشبان فى تيارات من الانحلالية والعقد النفسية والنزعات الاجرامية (١) .

وتحكمت القيمة الاقتصادية فى سائر القيم فى حياة الفرد والجماعة مع كبت للقيم الدينية فأضر هذا التحكم بقدسية الزواج ومعنى تكوين الأسرة ، فسقط الزواج الى تجارة مادية نسيت فيها معانى الاتحاد الروحى بين الزوجين ، فأدى الى خرابها والى الاستهتار الخلقى وتشريد الكثير من الأطفال الأبرياء ، هذا فضلاً عن بعث الرق القديم فى صورة جديدة إذ اضحى الانسان عبداً للسخرة وآلة فى يد الدولة .

فلقد دفع الميل الى تنظيم الحياة اقتصادياً وحل المشكلة الاجتماعية من زاوية واحدة فقط فى كثير من الدول الى كبت الحريات البشرية فيها والضغط عليها بالدكتاتورية البوليسية الجارفة . إلا أن هذا التنظيم الاقتصادى لا يمكن ثباته بالعنف والارهاب وانما بإقناع الخاضعين لهذا النظام بأن يتبنوا مبادىء التعاون الاجتماعى ويؤمنوا بالحب والخير . (٢)

ان الاصلاح الحقيقى لمجتمعنا يجب أن يشمل التركيب القيمي للحضارة كَكُل متناسق ، وليس فى الاتجاه الى سيطرة القيم المادية على سائر القيم العليا الروحية

وأما الاصلاح الخارجى بسن قوانين اقتصادية واجتماعية فإنه ينطوى على جهل بالمطالب القيميّة للنفس ، واستهتار بالحرية البشرية يؤدى الى نتائج غير محمودة . وأننا نرى أن تقليد المظاهر المدنية من الخارج والتمسك بأحسن القوانين

---

(١) أزمة الحضارة فى البلاد العربية بقلم الكاتب فى مجلة بريد الصباح سنة ١٩٤٨ ص ٢٥٣ و ٢٦٥ و ٢٨١ .

(٢) نظرة الى مشاكلنا وطرق حلها . بقلم الكاتب فى مجلة بريد الصباح سنة ١٩٤٧ ص ١٠٧

والنظم السياسية المنقولة عن أرقى الشعوب لا فائدة منه بدون تهذيب النفوس روحياً وتحريرها من الجهل والخطيئة .

ويلاحظ فى مدنيتنا تفكك الشخصية الانسانية ونمو قوى المنطق نمواً زائداً أدى الى اهمال وكبت الوظائف النفسية الأخرى فى الانسان ، فأخذت تعمل هذه الوظائف بدون مراقبة الوعى على التدمير والتخريب ، فاختل توازن الحياة الروحية عند الملايين . وقد أشار الدكتور اليكس كاريل فى كتابه « الانسان هذا المجهول » إلى انتشار الجنون والأمراض النفسية كنتيجة لهذا التفكك . وزاد من هذا الاختلال أن الناس يتجهون فى عصرنا الى التخصص فى ناحية واحدة من المعرفة البشرية ، فأدى هذا الى بروز ظاهرة خطيرة فى مختلف المجتمعات فى العالم ألا وهى نبوغ علماء فى جانب اختصاصهم من جهة وجمودهم أو تأخرهم وانحطاطهم فى الجوانب الأخرى. وكانت نتائج هذا فظيعة فى حوادث الطلاق والمعاملات الاجتماعية والحوادث الجنائية التى تفيض بها محاضر مراكز البوليس . يقول جان مارى جويو : إن نمو الدماغ نمواً غير متناسب وسائر القوى النفسية الأخرى أدى الى تأخر نموها وكبتها فإن إنسان القرن التاسع عشر اذا قورن بانسان افلاطون اعتبر خلقة مشوهة . وقد نشأت ميلانخوليا العصر من اضطراب فى التوازن بين القوى النفسية[1] . وأثبت العالم النفسى الكبير يونج « أن الخراب الراهن الذى يهددنا ليس من حوادث الطبيعة أو من حوادث بيولوجية، وإنما من حوادث نفسية . إن حروباً وثورات تهددنا وترعبنا إلا أنها ليست سوى أوبئة نفسية » .

ويذكر الفيلسوف اليونانى كاليافا أنه فى أزمنة الاضطراب كعصرنا لا يبقى أحد خارجه . فان الاضطراب النفسى تنتقل عدواه بسرعة تفوق عدوى المرض الجسدى. وفى هذه الفترة المتأزمة يتعرض القادة العظام أنفسهم للانحرافات النفسية تعرض الأطباء للعدوى أثناء الأوبئة . فكم من قادة كبار وبخاصة السياسيين

---

(١) Jean Maric Guyau , L '·irréligion de l' avenir.

منهم هم اليوم من حملة هذا الإضطراب النفسي؟ إلا أن الأقوياء يستطيعون التحرر منه لأنهم يدرسون أسبابه و يحاولون علاجه [1]

وماذا نقول عن الاتجاه الى المسابقات الجمالية وترويض الجسد بدون أن يُقرن بتهذيب النفس ، مما أدى إلى قتل الروح عند كثيرين و بروز أفراد من الرجال والنساء تحت اسم أبطال وكواكب سينمائية لا ميزة عندهم سوى جمال الجسد أو قوته ، بعد أن ذهب الحياء، الشرط الضرورى لصيانة المجتمع المتمدن، واندكت الأسس الروحية التى تسموا بالغرائز ، وصعدت الى سطح المدنية الخارجية عبادة الجسد والتحلل الجنسى وترجل نساء وتخنث رجال . قال الفيلسوف اسبرانجر أحد كبار فلاسفة الحضارة « إن العالم القديم قد خرب . ولكنه لم يخرب لأسباب اقتصادية أو سياسية وانما كان ذلك لأن الطبقات الحاكمة والمتزعمة فيه كانت مريضة فى الأساس ، أى أن حياتهم كانت مريضة فى المسائل الغرامية والجنسية » .

* * *

لقد رأى كثير من فلاسفة الحضارة مواطن الداء فى مدنيتنا وأسباب أزمتها فتشاءمت نفوسهم وقلقوا على مستقبلها وقال بعضهم انها لابد أن تسير إلى الخراب والدمار التام . وقد تأثروا بنظرية امشبنجلر الفيلسوف الألمانى الذى اعتبر الحضارة الأوروبية فى عهد انحطاط لا مفر منه ولا خلاص، وانه سينتهى بزوال هذه الحضارة.

الا أننا لا نميل إلى هذه الجبرية فى تقدير ظروف مدنيتنا هذه لأن هذا التشقق فى نسيج القيم ليس معناه أن القيم الروحية قد كبتت نهائياً أو ليس لها أى حياة فى عصرنا ، لا بل أن فى مدنيتنا الراهنة الكثير من العناصر الطيبة . ويتوقف حسن استعمالها على الاصلاح الباطني للتركيب القيمى فى نفس الانسان. فاذا كانت التكنية اليوم تستعبد الملايين وتطمس أرواحهم وتمحى شخصياتهم، فما ذلك الا لأن هؤلاء

(١) كاليافا — سمات عصرنا (يونانى) ص ٢٣

الناس اتجهوا إلى تحقيق القيم المادية وتناسوا الروح وقيمها والدين ومبادئه . إلا انه مازال فى العالم كثيرون لم يسجدوا للصنم المادى .

وقد أثبتت الفلسفة الحديثة أن نواميس التاريخ ليست جبرية وانما هى احتمالية، وذلك بسبب أن الانسان حر الارادة . وقد حطم العلماء والفلاسفة مذهب السببية الذى استندت عليه الجبرية التاريخية. لهذا ينبغى أن نتوقع انتصاراً كبيراً للقيم الروحية العليا وعودة الناس إلى الله بعد أن أنهكتهم العدمية وقادتهم إلى التفكك الشخصى ، والصراع الشعبى والثورات الأهلية وعدم التوازن الدولى ، والحروب والمجاعات والخوف من اندلاع حرب ذرية صاروخية عالمية لا تقضى على كل ما ورثه الماضى من روائع الفكر والفن وحسب ، بل تقضى أيضاً على الانسان نفسه .

ان الآلام والقلق والخواء الذى يعانيه إنسان اليوم مع يقظة جميع الشعوب فى عصرنا والاتجاه إلى اختلاط الثقافات والعادات وتمازج الأفكار بين الشعوب، ساعدت على نمو الشعور بأهمية العمل المسيحى فى سبيل انقاذ الانسان ومدنيته . ومما يلاحظ فى هذا القرن أن الكثير من كبار العلماء والفلاسفة الملحدين يرجعون الآن إلى الايمان وإلى طلب علاج مشاكل العالم فى ضوء المفاهيم المسيحية . ويجب التنبيه إلى أن أقطاب العلم والفلسفة فى العالم معظمهم مؤمنون .

وهناك ظاهرة تبعث على الاطمئنان والتفاؤل وهى أن التهور العدمى الذى اتصف به المعسكران الشرقى والغربى بدأت تخف حدته . فان النظام الشيوعى اضطر أخيراً إلى الاعتراف بحرية التدين وفتح الكنائس وانشاء الكليات اللاهوتية فى الاتحاد السوفياتى . كما انه أخذ يعدل فى نظمه القاسية التى تمحى شخصية الفرد فى الجماعة ، وعملت الدول الرأسمالية الغربية على تحديد رأسمال وتوجيهه وحماية حقوق العمال وتأمين حياتهم .

ومن العلامات الطيبة التى تبعث على التفاؤل ان كبار علماء الطبيعة فى القرن العشرين أدركوا جيداً أن للعلم حدوداً ينبغى أن لا يتعداها ، وان هناك جوانب

أخرى لعالم الواقع لا تقع فى مدار البحث التجريبي والعقل المنطقى. ثم أن الكنيسة نفسها فى الغرب أدركت جيداً انها أخطأت فى الماضى حين كانت تقاوم رجال العلم الحديث وتتهم العلم بالمروق والهرطقة، وذلك لأنه قدم مفاهيم جديدة عن العالم تختلف عن المفاهيم التى قدمها أريسطو. وقد أخذ رجال الدين أنفسهم يشتغلون بالعلم الحديث ووصلوا إلى نتائج باهرة أهمها أن مفاهيم المسيحية عن الكون والحياة لا يزعزعها تحطيم الصنم العلمى العالمي الذى وضعه أريسطو أو غيره، وان العلم ينبغى أن تترك له الحرية للعمل فى حدود اختصاصه لاستكشاف نواميس الكون واستخدامها لخير الانسان، وحتى نظرية التطور نفسها أصبحت شخصيات كثيرة أمثال الأب فاسمان الجزويتى تعتبرها دليلاً على عظمة الله وحكمته.

ومن أهم العلامات الطيبة ذلك الاتجاه إلى توحيد جهود وتعاون الكنائس المسيحية وارسالياتها. وان للحركة المسكونية فى هذا السبيل مجهودات ضخمة تشكر عليها. وقد تم فى عصرنا اتحادات فيدرالية لكنائس متفرقة فى العالم. وتجرى الاستعدادات لتوحيد الكنائس فى الشرق والغرب من الوجهة العقائدية. أما نشر المفاهيم المسيحية فى منظمات الشباب ومدارس الأحد المختلفة، والنشاط الكبير بين المفكرين المسيحيين فى تزويد العالم كله بالكتاب المقدس، والكتاب المسيحى، والصحافة المسيحية فانه مما يبعث على الاعجاب حقاً.

وهناك ظاهرة طيبة تستحق الذكر وهى حركات التقارب بين الأديان والمذاهب المؤلهة المختلفة، وبخاصة بين المسيحية والاسلام لمجابهة الالحاد ودحره. ويجب أن نذكر هنا أن المسيحيين فى العالم العربى كانوا أول من عمل لهذا التقارب فى صدر الاسلام. وكان من نتائج هذه الروح الطيبة أن المسيحيين ساهموا فى بناء الحضارة العربية مساهمة فعالة ودافعوا عن حقوق بلادهم واستقلالها ليس فى العصر الراهن وحسب، بل من عهد حروب الروم والحروب الصليبية.

* * *

وخلاصة القول أن المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد . والذين يحيون فيه تتجدد نفوسهم وتتجه إلى ابداع القيم الواقعية واستعمال خيرات المدنية بطريقة سليمة تتوازن فيها شخصية الانسان وتتناغم فيها حياة الأفراد فى المجتمع ، وتتجلى فيها سيطرة القيم الروحية المطلقة على القيم المادية، وتتجه بالمدنية الى جعل الناس يتعايشون باخاء ومحبة وسلام .

وينبغى التنبيه هنا إلى أن المفاهيم المسيحية ليست تعليماً اجتماعياً وحسب ، ولا أخلاقياً وحسب كما ظن بعض الأخلاقيين من أصحاب المذهب الانسانى الحديث أو بعض علماء الاجتماع والمذاهب الاشتراكية . فان الجانب الأخلاقى أو الاجتماعى هو جانب واحد من جوانب المفهوم المسيحى عن الكون والحياة . ولا يمكن فصل هذا الجانب عن المفاهيم الروحية الميتافيسيكية فى المسيحية وإلا كانت هذه المسيحية بغير المسيح . فالمسيحية الحقة هى المسيح نفسه . ولا يأتى الخلاص للانسان والمدنية إلا بالايمان بالمسيح نفسه الحى إلى الأبد . ولا يمكن أن تتحقق الثورة الباطنية بالاكتفاء بتعاليم المسيح وحدها وانما بالعيشة فيه .

هذا هو ايماننا . اننا بالايمان المسيحى يمكننا أن نصل إلى وحدة الروح الذى ينظم نسيج قيم المدنية المتشقق ، ويعلم الناس أن يزنوا النظم البشرية ومظاهر المدنية كلها بميزان الأسس المطلقة ، أسس ناموس الله ، فيقبلوا ما كان فيها صالحاً ويكملوها كما حدث عندما تبنى المسيحيون الحضارة اليونانية . وهذا هو واجبنا كمفكرين مؤمنين ... أن نتلمذ كل الأمم ، وكل المدنيات ، ونفتح القلوب ليدخل اليها نور المسيح محررنا العظيم . فان الحياة المثلى عنده وهو واهبها ومنميها .

جرمانوس لطفى

المسيحية وارتقاء العلم

(للاستاذ حبيب سعيد سكرتير عام ادارة التأليف والترجمة والنشر للمجمع المسيحي بالشرق الأدنى ، ورئيس تحرير مجلة « الشرق والغرب » وسكرتير رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى)

« الله روح . لا متناهٍ . أزلي . خالد . غير متغير في حكمته وقوته وقداسته وعدله وصلاحه وحقه » .

هذه بعض صفات الله الحسنى التي تعلمتها وأنا بعد صبي في قانون المسيحية . ولكن أشهد ان تلك كانت مجرد ألفاظ لم ادرك كنهها تماماً . وما فهمت معاني لانهائية الله وأزليته وحكمته وقدرته، الا بعد أن أطللت من نوافذ العلم ورأيت المسيح في عالم الطبيعة . و بعد دراسة وتفكير أيقنت أن الكتاب المقدس والعلم يشرح أحدهما الآخر ، و يكمل أحدهما الآخر ، لأن مصدرهما واحد ، هو الله الذي خلق العالمين . ولأضرب لذلك مثلاً :

قال لي التعليم المسيحي ان الله لانهائي غير محدود . ثم جاء رجل العلم وأعانني على فهم معنى هذا الكلام، بأن أراني المقاييس التي توصل اليها في هذا العالم المحدود:

ولنتخذ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كمقياس . وهي ٠٠٠ و٦٦٤ و٩١٤ و٨٧٥ و٥ ميلاً . وهذا في أرقام صحيحة عبارة عن ٦ إلى يمينها ١٢ صفراً . وهو يوازي ٠٠٠و٦٠ مرة المسافة بين الأرض والشمس . والآن ماهي سعة هذا الكون ؟ الكون واسع جداً بحيث ان الضوء — في سرعته الهائلة التي اتخذناها مقياساً لنا — يستغرق ٠٠٠و٢٥٠ سنة ليقطع المسافة مرة واحدة فقط من جانب إلى الجانب الآخر في هذا الكون ! ثم يأتينا العلماء بصور وعمليات حسابية تنبيء ان هناك عوالم أخرى وراء كوننا هذا، وان المسافة بين تلك العوالم وهذا الكون الذي نعيش فيه تقدر ب ٠٠٠ و٠٠٠ و٢ سنة ضوئية . بل يأتي آخرون باحصائية

أخرى فيقولون ان المسافة لأبعد تلك السدم — كما اكتشفها المرقب (التلسكوب) تقدر ب ٠٠٠و٠٠٠و١٤٠ سنة ضوئية. واذا اردتم وضع هذه المصطلحات الفلكية فى أميال فضعوا رقم ٨٢٣ والى يمينه ١٨ صفراً . بل قد أنبأتنا أحدث الأخبار بأن علماء الفلك قد تمكنوا فى مرصد و يلسون باميركا من التقاط صور لنجوم تبعد عن الأرض بنحو عشرة بلايين سنة ضوئية . ومعنى هذا ان الضوء الذى أدى إلى الحصول على تلك الصور قد انبعث من تلك النجوم النائية منذ عشرة بلايين من السنين !! و يتوقع العلماء ان يتمكنوا بعد سنتين أو أر بع سنوات من التقاط صور عن الكون عند بدء تكو ينه. هذا هو الكون المحدود !!

الآن فهمت معنى لانهائية الله . وآمنت ان الله غير محدود لا متناه !!

* * *

وقال لى التعليم المسيحى : — الله أزلى — ويقول النبى : « الرب إله أزلى » . وأيضاً « هكذا قال العلى المرتفع ساكن الأبد » — فماهى حدود أفكارنا عن الزمن ؟ الحياة البشرية معدلها سبعون سنة . وقد نقف أمام الاهرامات ونفكر برهبة وخشوع فى ٥٠٠٠ سنة اقتطعتها من حقبة التاريخ البشرى . هذه لا شىء فى مقياس الزمن. تعالوا معى إلى ضاحية المعادى بالقاهرة لنلتقط بعض المدى الصوانية التى يرجع تاريخها إلى العصور الحجرية. وهى تأخذنا إلى الوراء ٠٠٠و١٥ سنة. وهذه أيضاً لا شىء فى مقياس الزمن . بالقاهرة متحف جيولوجى ، وهناك تجد على مقربة من مدخله رأس تمساح . وقد ظننت انهم جاءوا بها من النيل . فسألت صديقى الجيولوجى هناك : « ماذا أنتم فاعلون بهذه الرأس ؟ ». فأجابنى : « نحن جئنا بها من مكان يبعد ١٥٠ ميلاً فى الصحراء غرب مجرى نهر النيل ». فسألته « وماالذى طوح بها إلى هناك ؟ ». سألنى : « إلى أى عصر فى التاريخ تريد أن أرجع بك إلى الوراء » — قلت : « أرجع إلى الوراء بقدر ما تستطيع ، وسأهضم ما أقدر عليه من قولك » . وأخذ يقلب الصفحات الجيولوجية ورجع بى إلى الوراء حوالى ٠٠٠ و٠٠٠ و٢٥ سنة يوم لم يوجد البحر الأحمر ، يوم كانت اليابسة جزءاً واحداً

متصلاً إلى بلاد الهند . يوم كان فى هذه الربوع نهر يجرى على مسافة ١٥٠ ميلاً غربى المجرى الحالى لنهر النيل. وهكذا أخذ يعود بالعصور الجيولوجية إلى الوراء حتى وجدت نفسى أخيراً — بعد أن تخطّيت العصور المطرة — فى « مصر » التى أستطيع معرفتها. ولكن ٢٥و٠٠٠و٠٠٠ سنة ليست شيئاً أمام العلم فى هذا العصر.

ويقدر العلماء عمر الحياة على الأرض ب ٣٠٠و٠٠٠و٠٠٠ سنة كما يقدرون عمر الأرض نفسها ب ٢و٠٠٠و٠٠٠و٠٠٠ منذ انشطرت عن الشمس وأخذت تبرد. وهذا أيضاً ليس شيئاً فى حساب الفلكى، لأن تكوين الأرض لم يكن إلا حادثاً عرضياً فى عمر الشمس، التى يقدر الفلكيون عمرها ب ٨و٠٠٠و٠٠٠و٠٠٠ سنة.

وبينما أتتبع بخيلاتى الحائرة هذه العمليات الحسابية التى يقدمها لنا العلماء أجد نفسى مردداً بمعنى أعمق أكثر من ذى قبل قول النبى « الرب إله أزلى » — « قبل أن تولد الجبال ، أبدأت الأرض والمسكونة . منذ الأزل إلى الأبد أنت الله » .

الآن قد عرفت معنى أزلية الله ، وآمنت بأنه أزلى !

* * *

ثم ان التعليم المسيحى الذى تلقنته قد علمنى حكمة الله غير المتناهية. ولكن ما أمثلة حكمة الله وقصده الحكيم ؟

إن أرضنا هذه جزء من نظام مركزه الشمس ، التى تدور حولها سيارات على أبعاد ومسافات مختلفة . وكلما اقتربت هذه السيارات من الشمس زادت سرعتها ، وكلما بعدت قلّت سرعتها . وأقرب هذه السيارات إلى الشمس هو عطارد الذى يبعد عنها ب ٣٦و٠٠٠و٠٠٠ ميل ويستغرق فى دورته الواحدة حول الشمس ٨٨ يوماً .

وأرضنا هذه تبعد عن الشمس ٩٣و٠٠٠و٠٠٠ ميل وتستغرق دورتها حول الشمس سنة كاملة . وأبعد السيارات عن الشمس هو البلاطون (وهو اسم إله الجحيم عند الرومان) ويبعد عن الشمس ٣و٧٠٠و٠٠٠و٠٠٠ ميل ويستغرق فى دورته الواحدة ٢٤٨ سنة !!

انظر ، ياقارئي الكريم ، إلى أرضنا هذه ! انها كرة قطرها ٨٠٠٠ ميل وزنتها ٦٠٠٠ر مليون مليون مليون طن . وهى تدور فى اتجاهات ثلاثة فى الوقت الواحد : حول محورهـــا ، وحول الشمس ، ومع الشمس ... ولو أن أرضنا هذه تأخرت فى دوراتها خمس ثوانٍ فى كل مليون ميل منذ عصر آدم لنتج فرق قدره ستة شهور فى تعاقب الفصول ، ولكن الحكيم العزيز قال : لا . لتتعاقب الفصول فى مواعيدها ولتنضج الأثمار فى أوقاتها . ويقدِّر العلمـــاء أن الأرض تدور مع الشمس مسافة ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل فى السنة وتدور مسافة ٩ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل حول محورها فى السنة . وعلى الرغم من السيارات الأخرى التى تكايدهـــا وتحاول تحويلها عن خط سيرها ، فان الفرق الزمنى من حيث تعـاقب الفصول هو جزء واحد من ألف من الثانية فى كل مائة عام ! ونحن نكابر ونتحدث عن دقة التصميم وضبط الزمن. ليس هذا كله مجرد صدفة ، بل هو تصميم دقيق بيد حكيم عزيز قدير !

ولو اننا كنا أبعد عن الشمس بنسبة ١٠ ٪ فقط من المسافة التى تفصلنـا عنها ، لمات كل حيٍّ من البرد ! ولو اننا كنا أقرب اليها بنسبة ١٠ ٪ فقط ، لمات كل مخلوق من الحرّ ! ولو أن الأرض خلقت بحجم غير حجمها الحالى ، لانعدم الهواء المحيط بها !

ان الله القدير الحكيم فى هذا الكون العظيم الذى خلق. ولـكن تعالَ معى لنهبط إلى أدق ذرات المادة ، وهناك نجد حـكمة الله . « الجوهر الفرد » هو ذرة دقيقة من المادة حتى لقد تستطيع أن تضع منه كدريليونين (أى رقم ٢ والى يمينه ١٥ سفراً) على رأس دبوس ! وقد توصل العلم الى معرفة محتويات هــــذه الذرة ودخائلها وقال ان كل ذرة مركبة على نظام ، كالنظام الشمسى ، بداخلها « نواة » فى مركزها ، يدور حولها الـكترونات (ذريرات) بسرعة هائلة ! وهذه الذرة هى التى حطمها العلم أخيراً وخلق منها قوة هائلة ، وقد تبيد العالم يوماً ما ، وقد تستخدم

لتسيير السفن والقاطرات والطيـارات والآلات ، بحيث يمكن الاستغناء عن كافة أنواع الوقود الأخرى .

وهنا أصرخ بأعلى صوتى : « وهل يُعنَى الله بذرة من المادة ولا يُعنى بى » . واتسمع ربى يقول لى بلغة هذا العصر « لا تخف أنت أفضل من ذرات كثيرة » .

لك المجد والجلال ياصاحب الحـكمة المتناهية ! !

* * *

وهكذا يستطيع الباحث أن يتناول أفـكاراً دينية أخرى — كافعلنا بلانهائية الله وأزليته وحكمته — ليبين كيف يخصب العلم أفكارنا عن الله . وأنت ، يا قارئى الكريم ، اذا نظرت الى العلم نظرة الخوف والريبة والشبهات بدلاً من اتخاذه حليفاً ونصيراً ، فانك تسلب نفسك قوى مخصبة نافعة . وأشهد اننا مدينون لـكتاب الله المقدس حتى فى العلم . ذلك لان كتـّابه قد ساقهم الروح القدس ليكتبوا فى يومهم ما كان مناقضاً لتفـكير عصرهم . أرأيت إلى ارمياء وهو يقول : « جند السموات لا يعدُّ » (ص ٣٣ : ٢٢) . ويعنى بذلك نجوم السماء . كتب النّبى القديم هذا الـكلام قبل المسيح بست مائة سنة . وبعده بأربع مائة سنة جاء « هيباركوس » وكان أكبر نوابغ العلم فى يومه ، فقال ان هناك ١٠٢٦ نجماً في الـكون كله . وقد خالفه ارمياء فى هذا ، يوم قال انها لا تحصى . وحوالى عصر المسيح قام بطليموس العالم الرومانى الشهير ، وقال ان ســلفه كان مخطئاً ، وان فى الـكون ١٠٥٦ نجماً لا ١٠٢٦ نجماً . وظل هذا الرقم هو الاعتقاد السائد إلى أن حلّـت سنة ١٦١٠ ب.م. وظهر العالم غليليو ، وعرف بمرآته الصغيرة التى ابتـكرها أن فى الـكون عدداً كبيراً من النجوم والـكواكب .

وبعده اخترع العلماء المرقب (التلسكوب) ذات المائة بوصة . ومنه عرف العلماء أن بالمجرة وحدها — التى يسمونها بلغة العامة « درب التبّـانة » — ٢٧٠ بليون

نجم ! وهاهم قد ابتكروا الآن مِرقباً ذات ٢٠٠ بوصة ، الذى سوف تتسع به معرفتنا فى عالم الكواكب والنجوم. وسيؤيد العلم يوماً ما صدق ما قاله ارمياء النبى « نجوم السماء لا تحصى ! »

السحر والخرافات أمام العلم :

ونحن نعلم شيئاً عن مساوىء السحر والخرافات. وفى بعض البلدان تموج الأرض ذاتها بالخرافات . وينظر القوم إلى مدّ خطوط السكة الحديد والأسلاك البرقية وحفر المناجم وتمهيد الطرق بأساليب علمية كأنها من الأعمال التى تقلق الأرواح الهائجة فى مضاجعها السرية مما يثير سخطها وغضبها .

والخرافات والسحر ليست من ضربات الشعوب والجماعات الفطرية وحسب ، فاننا نشهد حتى اليوم الطلاسم والتمائم والأحجبة التى يلبسها العامة فى الشرق فى هذا العصر . وفى باب زويلة بالقاهرة وفى بعض نواحى دمشق و بغداد تقع العين على جموع من عامة الشعب تتعلق بالسحر والخرافات .

وقد تقول : « من الجائز أن يعمل العلم فى الأديان الفطرية للقضاء على الخرافات. ولكن هل المسيحية فى حاجة إلى شىء من هذا ؟ » ولكن ارجع معى إلى كفاح الشيع البروتستانتية فى عهد الاصلاح : ألم يكن انتقادهم للكنيسة فى عصرهم قائماً على انها قد رفعت مستوى الخرافات فوق مستوى الدين ، ونسبت إلى الكنيسة والكاهن بعض قوى سحرية لم تكن روحية ولا معقولة — ولا أدبية فى بعض الاحيان ؟

وأرجو ان لا يُساء فهم ما أقول. فانى لا أقصد بأن العلم هو الذى جاء بالاصلاح لان هذا خطأ فى تسلسل تاريخ الحوادث. انما أريد أن أدل الى الخطر المستمر الذى تستهدف له المسيحية ذاتها فى الجنوح الى ممارسات خرافية سحرية . والجو العلمى السليم هو على الاقل حاجز قوى ضد هذه الميول الفاسدة الشريرة . أجل ، ان المسيحية مفتقرة الى العلم ، وهى تنتفع بالاشتراك معه والسير الى جانبه .

الجمود فى الدين :

واذا كان هناك عدو للمسيحية أعظم من السحر والخرافات فهذا العدو هو الجمود والوقوف عن كل تطور وتقدم . و بين الناس مَن ينظرون الى الدين كتمثال جميل من المرمر متقن النحت والابداع ولكنه غير قابل للتغيير . أما أنا فأوثر أن أنظر الى الدين كشجرة دائمة النماء تتوالد أغصانها وتمثل لنا حياة النمو والتقدم . وترى من ذا الذى يرضى أن يستبدل الافكار المحدودة الضيقة عن المسيحية منذ ألف سنة مثلاً بالافكار الخصبة الغنية فى هذا العصر ؟ وما تاريخ التعليم المسيحى إلا قصة حق جديد يُعلن بالتتابع . وما تاريخ الجماعات المسيحية إلا قصة طويلة لتطبيق للبادىء المسيحية على الحياة تطبيقاً أوسع مدى وأغزر حكمة . ونستطيع أن نرى حولنا فى الشرق أقساماً من الكنيسة المسيحية قعدت عن النمو . وانه لمنظر يستحق العطف والاشفاق ! فكيف تستطيع اذاً المسيحية أن تنقذ نفسها من ضربة الجمود ؟ لا شك أن هناك أكثر من جواب واحد على هذا السؤال . ولكن مما لا شك فيه أن من أقوى العوامل لتحقيق ذلك هى الحوافز المنشطة — المباشرة وغير المباشرة — التى نراها فى العلم . ومما يثلج صدرى أن أتخيل القوى الجديدة المخصبة التى تستكشف لنا فى ديننا المسيحى ان نحن بذلنا فى ميدان الدين من الجهود والبحوث والعناء عُشْر ما يبذله العلم فى أبحاثه وجهوده وتجاربه . وهنا أتخيل الشهور والسنين التى يقضيها العالم فى قياس سرعة الضوء ، وأقول لنفسى أين المقابل لهذا فى البحوث الدينية الدقيقة ؟ وأقرأ عن المختبرات العلمية التى تنشأ والمؤسسات التى تُشاد لغرض واحد معين من أغراض البحث العلمى ، فأقول أين البحوث المماثلة لها فى النواميس الروحية وأين المختبرات الدينية التى تحاكيها ؟ أقرأ حياة العالم «باستور» وأرى دقة التجارب العلمية التى قام بها لاكتشاف نواميس الاختمار مما سهل معالجة الجروح من الناحية الواحدة وساعد على حفظ الاغذية فى « العلب » بدون أن يتطرق اليها الفساد من الناحية الاخرى . وقد حسب الناس جهوده وهمية خيالية

ومشا كله معقدة عاصية. وطلب اليه أصدقاؤه أن يستريح من العناء . أما هو فكان شعاره : « العمل . والعمل . والعمل دائماً » . فأين أمثال « باستور » فى العالم الدينى الذين يكتشفون أساليب العلاج لداء الخطية المتفشى ؟ ولسنا نرضى قط أن تكون ذرة المادة أو جرثومة الداء أجدر بالدرس والبحث من النفس البشرية والحياة الانسانية؟ ان العلم قد أعاننا على فهم النظريات والآراء الحديثة التى استكشفها اللاهوتيون والمفسرون فى المسيحية .

القيم الروحية :

ولكن ما الخير الذى يغدقه المسيح والمسيحية على العلم ؟ ان العلم يقف عادة أمام الشيء ويسأل : ما هذا ؟ كيف يعمل ؟ من أين هو ؟ كيف تطور ؟ ولكنه لا يحلل لنا معانى الأشياء وقيمها وأهدافها . واليك مثلاً : ينفحنى صديق بهدية فى مناسبة ما . وقد يأتى العلم ويحللها وينبئنى عن وزنها وحجمها وكثافتها والعناصر المركبة منها . فاذا كانت الهدية باقة من الأزهار مثلاً ، يدلنى علم النبات على الاسم النباتى لكل زهرة . واذا كانت حجارة كريمة يدلنى علم طبقات الأرض على عمر أحجارها وكيفية تكوينها . ولكن أين معنى الهدية ؟ أين المحبة الجاثمة وراءها ؟ أين معانى المشاركة التى يحملها إلىّ الصديق بين طياتها ؟ أين الرسالة الودية التى تأتينى بها ؟ العلم لا يحدثنى عن شيء من هذا .

ان العلم يحلل لنا الكون ، ويطلعنا على ما فيه من عجائب وغرائب . ولكن المسيح هو الذى يشرح للناس فى مبادئه وديانته القيم الروحية للأشياء ، والمعانى الانسانية الكريمة ، ومقاصد الطبيعة ومعانيها .

* * *

الاخلاص والصدق والتواضع :

وحين نلتقى بالعظماء فى أية ناحية من نواحى النشاط البشرى ، يقوى شعورنا

بأن العظمة البشرية تقترن عادة بخواص وميزات معينة قوامها الاخلاص والصدق والتواضع والوقار والأمانة وتضحية النفس . وهذه هى الصفات البارزة التى يلقنها المسيح لابناء الانسانية فى دينه وتعاليمه .

والعالِم يكون عالماً من الطراز الأول متى كان مسيحياً . وحتى الذين لم يعترفوا جهرة بالمسيحية ، كانوا عادة مسيحيين بالروح . فمنذ اكثر من مائة عام ألقى العالم « فرادى » محاضرة أمام زوج الملكة الحاكمة فى بريطانيا العظمى عن قيمة الدين ومقامه فى العلم وقد أظهر معاصره العالم الطبيعى « ماكسويل » روح هذا التوقير عينه للأشياء الروحية . ومن يقرأ سيرة العالم « باستور » تأخذه روح ذلك الرجل العظيم المتواضع . وحياة العالم الامريكى « أجازيس » أشبه بزهرة جميلة تشتم منها عبير الثقة الدينية والسلام .

وقبل سنوات مات « أديسون » وامسى ملكاً للتاريخ . ويومئذ قالت زوجته « انه لم يكن ملحداً ولكنه آمن بقوة عليا وبوصية العهد الجديد : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك .. وتحب قريبك كنفسك ... » وعاش حياته على مقتضى هذه الوصية ، أميناً نظيفاً مخلصاً صادقاً مجداً ...

وتروى حادثة عن عالم امريكى شهير ، دعى مرة لالقاء محاضرة على نفر من طلاب الجامعات . واذ يُلقى العالم نظره إلى الطلاب يتوقف هنيهة ، وبدافع فجائى ، ولكنه طبيعى — يطلب اليهم أن يحنوا رؤوسهم أولاً فى صلاة صامتة لكى يبارك الله محاضرته ، ويرشده إلى الحق والصواب !

والمسيح هو الذى يهب العلماء والمتعلمين قوى الصبر والجلد ، والسلوى والعزاء فى البحوث المضنية ، وفضائل الاخلاص والشجاعة والأمانة والتضحية . لان هذه كلها لا تصدر إلا عن الموارد الروحية الدينية .

* * *

كلمة أخيرة :

رأينا أن للنظام الشمسى مركزاً ، وأن للذرة مركزاً ، وعندنا ان المسيح هو مركز هذا الـكون : لان « فيه خلق الـكل ما فى السموات وما على الأرض ... الـكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الـكل » (كولو ١ : ١١ و١٧) .

بل هو مركز حياتنا. واذا خلت حياتنا من هذا المركز ، بنيت على غير انسجام مع نظام الـكون ، وعلى غير تناسق مع قصد الله .

والعوالم كلها تبيد ، وهو الحىُّ القيُّـوم !

المسيحية والخلود

(بقلم دكتور مفيد ابرهيم سعيد الطبيب الجراح ،
والعضو برابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الادنى)

تمهيد : خلود الروح وبقاؤها بعد فناء الجسد عقيدة آمن بها الكثيرون ، ودعت اليها جلُّ الأديان ، ونادى بها الأولون والآخرون ، وإنما أضفت المسيحية عليها لوناً جديداً ومعانى فريدة .

لعل آفة هذه الحياة الدنيا وأشد بلاياها هو الخوف . فالناس يصبحون ويمسون فى خوف : خوف من الجوع وخوف من العلل وخوف من الزلل .... وما هذه المخاوف جميعاً إلا بعض الخوف من الموت أو قل انها مستمدة منه . على أن هناك سبيلين للتخفيف من هذا الخوف من الموت: أولاهما هى الجهل الكامل الذى ينزل بالانسان إلى ما يقارب الحيوان ، فالحيوان لا يخشى الموت لأنه يجهله حتى يكون ، فاذا ما كان لم يمهله حتى يخشاه . والسبيل الثانية هى سبيل البحث المستنير فيما وراء الموت وفى خلود الانسان ، وهو ما يرتفع بالانسان إلى مايقرب من الله الذى — جلّ فى علاه — لا يعرف الخوف معنى ولا للموت قوة.

وانما نهدف فى هذه العجالة الى أن نسلك هذه السبيل الثانية معترفين أنها سبيل مقفرة لا نعرف عنها إلا القليل .

معنى الخلود : والمقصود بخلود الانسان هو استمرار شخصيته ووعيه و بقاء روحه الى ما لا نهاية حتى بعد فناء جسده عند الموت . ويذهب البعض — ومنهم لزلى وذرهيد — الى أكثر من مجرد البقاء ، فينادون بنمو الروح واطراد رقيها بعد الموت . فالخلود عندهم هو بقاء الانسان بعد الموت فى حركة وتقدم ، لا فى سكون واستقرار .

وخلود الانسان غير خلود الجنس البشرى كمجموع Corporate Immortality. فهذا الأخير يعنى أن رغبات الانسان وأفعاله وأقواله تترك أثراً باقياً فى حياة غيره من الناس حتى بعد وفاته، فتسهم فى إبقاء الجنس البشري. ورغم أن هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، إلا أنها ليست مرادفة لخلود نفس الانسان كفرد . ففى خلود الجنس البشرى لا يكون الانسان إلا وسيلة لبلوغ غاية ليس له — كمجرد فرد — نصيب فيها ، ولا يكون الجنس البشرى إذ ذاك إلا مجموعة وسائل لا يمكن أن توجد أو أن تكون إلا لمصلحة قوة خارجة عنها . ولا يعقل أن تكون شخصية الانسان التى بلغت من الوعى ما بلغت وسيلة صماء لهدف لا نصيب لها فيه .

وليس خلود الانسان مرادفاً لحياته الأبدية مع انهما على علاقة وثيقة . فالحياة الأبدية تبدأ قبل الموت حين يشارك الانسان خالقه فى طبيعته وحياته الأبدية بعد أن يعرفه « وهب لنا الله المواعيد العظمى والثمينة لكى نصير بها شركاء الطبيعة الالهية » (٢بط ١ : ٤) ، فيحيا فى المسيح حياة منتصرة أبدية تكون كل لحظة فيها أبدية مع أن هذه اللحظة قصيرة وفانية . فالحياة الأبدية وان كانت دليلاً على خلود الانسان ، إلا انها لا تعادله، فهى تتناول عمق الحياة كما تتناول طولها ،وتتحدث عن كيفية الحياة كما تتحدث عن كميتها . انها حياة من الله ، ومع الله ، وفى الله .

ولقد عالج الفيلسوف هيجل موضوع الحياة الأبدية ونادى بأن أبدية الروح هى أهم اختبار للانسان فى هذه الحياة الدنيا وليس مقصوراً على المستقبل ، غير أن هيجل لم يتحدث صراحة عن خلود النفس .

أما سبينوزا فقد حاول أن يفصل تماماً بين خلود النفس وأبديتها . فقال ان الثانية يمكن أن تكون بغير الأولى ، فقد تحدث عن خلود النفس التى وصلت الى معرفة الله إلا أنه اعتبر الوعى والادراك من وظائف الجسد وأنهما ينتهيان بفنائه . تلك إذن أبدية بغير خلود .

غير أننا وان كنا لا نعتبر الحياة الأبدية مرادفة للخلود، الا أننا لا نشارك سبينوزا

فى أن الأبدية يمكن أن تكون بغير الخلود ، فالأبدية تتطلب البقاء ولا تستقيم اذا سلمنا بالفناء .

موقف الناس من الخلود : والناس فى الدنيا ازاء الخلود ثلاثة : رجل يؤمن بالخلود و يحيا بمقتضى هذا الايمان ، وآخر ينكره و يستنكر الايمان به ، وثالث لاينكر الخلود صراحة ، ولـكنه يهمله فعلاً فلا ترى أثراً له فى حياته ، ولعله يحاول عبثاً أن يمسك العصا من طرفيها كليهما . وهذا الصنف الثالث من الناس يكتفى بأن يفكر فى حياة واحدة فى الوقت الواحد ، على حد قول هنرى ثورو ، حين سئل عما اذا كان يحس بحياة آتية بعد الموت . ولعله يظن انه اذ يركز اهتمامه و يوجه كل جهوده نحو هذه الحياة الدنيا ،فانه يكون أجدى وأنفع من آخر يهتم بالحياة الحاضرة والحياة الآتية فى وقت معاً . مع أن هذا وهم يجانب الحق و يخالف الواقع. فالايمان بخلود النفس و بحياة آتية يعطى هذه الحياة الأرضية عمقاً وسمواً ماكانت لتتمتع بهما لولاه ، و يطبع الانسان بطابع المجد والعظمة والخلود ، فيحفز الناس على العمل على إنهاض هذه الحياة واسعاد ذلك الانسان . فالشيء الباقى أثمن من شيء مآله الى زوال . فليس الايمان بالخلود إذن مخدراً للانسان يسكن من آلامه ، لـكنه منشط له يرفع من آماله . والتاريخ يؤكد لنا أن اكثر الناس نفعاً فى هذه الحيـــاة الدنيا كانوا الذين وجهوا أنظارهم صوب الحياة الآتية . بل تلك سنة الحياة فى كل نواحيها : ان شخصاً يركز كل اهتمامه فى صحته وتطورها من لحظة الى أخرى لابد أن يصاب بعد حين بالكثير من العلل من حيث لا يدرى . لكن الموقف الصحيح هو أن يهتم المرء بصحته لـكنه يهتم أيضاً بأمور أخرى غير الصحة كعمله ومهنته فتأتيه الصحة منقادة اليه . فرجاء الخلود ليس هروباً من الحياة ، لـكنه حافز على تفهم هذه الحياة والتعمق فى اختبارها الى أقصى معانيها .

أما المنكرون لحقيقة الخلود فمنهم من قاسى فى هذه الحياة ألماً وحزناً جعلاه يرغب عن المزيد من الحياة ، و يتمنى ألا يكون لها امتداد بعد الوفاة .

الا أن بعض المنكرين لرجاء الخلود يرتكنون على أدلة زعموا أنها تعارض هذا الرجاء .

الاعتراضات على الخلود : (١) أول هذه الاعتراضات وأضعفها عندى هو ذلك المستمد من منشأ هذه العقيدة .

يقولون ان عقيدة الخلود بدأت حين أخطأ الناس فى تفسير بعض الظواهر الطبيعية كالنوم والأحلام وغيرها ، ولانها نشأت عن خطأ فهى بالتالى عقيدة خاطئة . وهذا الاعتراض مردود عليه بأن صحة أية عقيدة أمر قائم بذاته ولا علاقة له بمنشأ هذه العقيدة ومصدرها ، فوجود خطأ تسبب فى نشأة عقيدة معينة لا يستلزم أن تكون تلك العقيدة بالتالى خاطئة .

(٢) ثم اعتراض آخر على الخلود ينادون به وهو مستمد من النظرة المادية البحتة الى العالم والحياة . فيقولون ان الادراك من وظائف الجسد ويتطلب وجوده ، فاذا ما فنى الجسد لم يبق ادراك ولا وعى ولا حياة . ولأول وهلة قد يبدو لنا أن كفة هذا الاعتراض راجحة لأن الموت ينهى كل ما كان ملموساً ومنظوراً . فعند ما تتوقف الحياة فى انسان يفقد كل ادراك ووعى ويصعب على المرء أن يدرك أين الروح .

وان لنا على هذا الاعتراض أكثر من رد . ان القائلين بهذا الرأى يفترضون أن علاقة الجسد بالروح والادراك هى علاقة سببية ، أى علاقة سبب بنتيجته . فاذا مازال السبب اختفت بالتالى النتيجة. لكن أحداً لم يستطع ـ وما اخاله يستطيع ـ أن يثبت مثل هذه العلاقة . اننا لا ننكر أن الجسد يؤثر فى الروح وأن حركة الجسد تغير من اتجاه النفس ، لكن هذا لا يثبت أن العلاقة بينهما علاقة سببية. فالعلاقة بين الأشياء قد تأخذ اكثر من صورة . ان صلة الضوء بالشمس هى صلة الشىء لسببه فهو يختفى اذا اختفت الشمس. لكن صلة الضوء المنعكس من مرآة موضوعة أمام أشعة الشمس بالنسبة لهذه المرآة ليست صلة الشىء بسببه . فمع أن الضوء يغير اتجاهه

تبعاً لحركة المرآة الا أنه ليس مستمداً منها. وما المرآة الا سطح عاكس لضوء مستمد من مصدر آخر فلا يختفي الضوء اذا رفعت المرآة ولكنه يغير اتجاهه.

وقوة هذا الاعتراض المادى على عقيدة الخلود تتوقف على تحديد نوع العلاقة بين الروح والجسد. فاذا استطاع أحد أن يثبت أن هذه العلاقة سببية فانه يستطيع بذلك أن يضعف كثيراً من قيمة رجاء الخلود. ولكن مثل هذا الاثبات لم يتم ولست أرى سبيلاً الى الوصول اليه. وبذلك تظل امكانية خلود الروح قائمة. فاذا ما استطعنا أن نجد من الأدلة ما يدفعنا الى الاعتقاد بالخلود، فان نظرة العلم المادية لا يمكنها أن تعطل هذا الاعتقاد لانها لا تقدم دليلاً ضده.

وثمة حقيقة أخرى تشير إلى صلة الروح والادراك الى الجسد ليست صلة سببية وهى أن جزئيات جسم الانسان فى حركة وتغير مستمرين اليوم بعد الآخر بحيث أن جسم الانسان اليوم غيره منذ أسبوعين، ومع ذلك يظل الانسان محتفظاً بقوة الذاكرة والادراك كما هى على مر السنين، اذ يبقى الانسان رغم تقدم سنه مدركاً لكيانه الشخصى الذى عهده منذ طفولته، غير متأثر كثيراً فى هذا بالتغير الجسيم المستمر فى خلايا وجزئيات جسمه.

وما هذا الا اشارة الى أن ادراك المرء وكيانه الشخصى لا يعتمد اعتماداً كلياً على جسده.

ثم هناك مأخذ آخر على هذا الاعتراض المادى. فمعروف اننا نستطيع باستخدام رسام المخ الكهربى أن نسجل التغيرات الكهربية والموجات المتتابعة فى المخ. وفى امكان المرء أن يشهد التغيرات الكهربية الكائنة فى خلايا مخه هو فى نفس الوقت الذى تتم فيه هذه التغيرات. ولعلنا نتصور جهازاً يرى به الانسان منا التحركات الكائنة فى جزئيات مخه وقت حدوثها واذا ذاك يواجهنا هذا السؤال: من الذى يشهد هذه الجزئيات وهى تتحرك؟ أهى تشاهد نفسها وتتأمل حركة ذاتها؟ أم أن ادراك المرء ليس مرادفاً لمخه؟ وبالتالى لا ينتهى اذا انتفى مخه وجسده. اذ كيف

تستطيع خلايا وجزئيات المخ وهى فى ذاتها غير واعية أن تتحرك وتشهد حركة نفسها فى الوقت الواحد.

إن أى انسان فى نظر الفلسفة المادية لا يعدو أن يكون أكثر من خليط ومركب من بعض العناصر المختلفة التى لو وزنت وحسب ثمنها لما زاد بأى حال على بضعة قروش. ثم تصوروا معى أن أعظم انسان فى هذه الحياة مهما بلغ شأنه أو علا قدره لا يعادل أكثر من قروش عديدة. أينشتين، عمر الخيام، شكسبير، بولس الرسول (بل يسوع نفسه) بغير عقيدة الخلود لا يساوى إلا بضعة دراهم من المال!! وهيهات أن يكون الأمر كذلك.

(٣) وإذ يفشل المعترضون فى استخدام النظرة العلمية المادية لهدم عقيدة الخلود ينتقلون الى اعتراض ثالث قائلين: ولئن كنا نحن لا نستطيع تقويض دعائم الخلود إلا أنكم أنتم كذلك من الجهة الأخرى عاجزون عن تقديم الأدلة المثبتة لهذه العقيدة. وردّنا على هذا هو أن نسأل: وأى نوع من الأدلة تطلبون؟ أتراكم تريدن أدلة قاطعة حسّية كاثبات نظرية حسابية مثلاً؟ إن كان كذلك فليس لدينا منها الكثير، ليس فى شأن الخلود وحسب، بل فى كل حقائق الحياة الحاضرة المسلّم بصحتها. وإنه لمن الاجحاف بالحق أن تطلبوا أدلة حسية قاطعة مادية على أمر روحى لا يمت للمادة بصلة. ولكن إن كنتم ترغبون فى أدلة مقبولة ومعقولة تشير جميعاً فى اتجاه واحد، فترجح كفة الايمان بالخلود على كفة انكاره، فهذا ما ستقدمه فيما بعد، مقررين فى الوقت نفسه أن العلم ذاته يقبل مثل هذه الأدلة المرجحة وإن كانت غير قاطعة، كدليل على صحة نظرية من نظرياته. وسنعالج بعد قليل بعض الأدلة المؤيدة لعقيدة الخلود.

(٤) وثمة اعتراض آخر يقولون به قبل أن يلقوا السلاح، وهو قولهم: حتى لو أثبتم لنا صحة الخلود، فاننا لا نقبل هذه العقيدة لأننا لا نرى لها هدفاً خلقياً أو قيمة انسانية، بل اننا نرى فيها شيئاً من الأنانية والمادية. يقولون إن المرء ينبغى أن يعمل

الخـير ابتغاء للخير لا أملاً في ثوابٍ في حياة آتية ، وأن يتجنب الشر اتقاء للشر لا خوفاً من عقابٍ في حياة قادمة . إن المناداة بحياة خالدة فيها مكافأة للخير ، ومجازاة على الشر ، تضفي على تصرفات الانسان في حياته الدنيا لوناً من المادية وتطبع الأبرار بطابع الأنانية في نظر هؤلاء المعترضين على الخلود . ونحن لا نقول إن أفضلية الحق والجمال والخير على أضدادها تعتمد أو تتوقف على حقيقة الحياة الآتية ، أو ان شخصاً لا يحب الخـير يمكن أن يغير نظرته هذه وكراهيته للخير لو أنه آمن بالخلود . ولا نقول ان خلود النفس في الحياة الآتية هو الذي يعطي قيمة وقوة لهذه الحياة الأرضية. وإنما نقول على ذلك : ان الحياة الحاضرة في نظرنا جليلة القدر وعظيمة القيمة ومليئة بالخير بحيث أنها لا يمكن أن تنتهي عند القبر ، وانما الخلود هو احدى مستلزماتها . فالحياة الآتية ليست أجرة على الحيـاة الحاضرة وانما هي نتيجة طبيعية حتمية لها .

(٥) ثم يسألون إذا كان الخلود حقيقة فـكيف تفسرون قلة حديث المسيح عنه . وعندي أن اشارة المسيح الى شيء ولو مرة واحدة لا تقل قدراً عن تكرار الحديث عن هـذا الشيء في مرات مختلفة . ولقد جاءت بعض تعاليم المسيح مؤيدة لعقيدة الخلود كما يظهر مثلاً في الحديث عن الغني ولعازر (لوقا ١٦ : ١٩ — ٣١) وفي الموعظة على الجبل (متى ٥ : ٢٩ و ٣٠) ... والسر في أن المسيح لم يطل الحديث عن الحياة الآتية هو أن هذه الحياة على مستوى غير مستوى هذه الحياة الدنيا ، فلا تصلح إذن لغتنا الأرضية لوصف هذه الحياة المنتظرة . ولقد كان هذا هو اختبار بولس الرسول بعد أن أُعطى أن يرى الحياة الآتية إذ لم يستطع أن يصفها بلغتنا وانما اكتفى بأن قال انها : « ما لم تسمع به أذن وما لم تره عين » (١ كورنثوس ٢ : ٩) .

الأدلة على صحة حقيقة الخلود : الى هنـا قدمت الجانب السلبي عن رجاء الخلود فحاولت أن أرد على اعتراضات المنكرين ، ولـكن هل من أدلة ايجابية على هذه العقيدة ؟

أولا — أدلة منطقية فلسفية :

(١) مستمدة من طبيعة الانسان :

ان فى طبيعـة الانسان فى مختلف العصور والبقاع ، دافعاً قوياً يقنعه بحقيقة الخلود . فالمصريون القدامى مثلاً آمنوا بالخلود ، و بنوا لذلك أهرامانهم . ولقد كانوا يعتقدون أن إله الشمس يموت كل مساء ، و يجتاز أثناء ظلمة الليل فى مملـكة الموت ثم يعود للحياة مرة أخرى عند الفجر .

وقد كان الانسان فى نظر قدماء المصريين مكوناً من عدة عناصر : الجسد Khat ثم عنصر ثان يمكننا أن نسميه النفس Ba ثم الروح أو العنصر المضىء Khu وفيها يتركز ذكاء الانسان وأسمى صفاته . وكانوا يعتقدون أن ظل الانسان أو خياله Khaibet ـ شأنه شأن صورته ـ هو جزء من الانسان نفسه ، كما أن اسمه Ren هو جزء آخر أساسى فيه . ومن آرائهم أن لكل انسان شخصاً ثنائياً له Ka لا يموت معه .

غير أن العنصر الخالد فى الانسان عند قدماء المصريين لم يكن روحه أو نفسه بل كان جسده ، لـكنه ليس الجسد الذى يموت عليه ، وانما آمنوا أن الانسان يتخذ جسداً جديداً بعد الموت اسمه Sahu غير جسده الذى مات عليه Khat والذى يدفن فى القبر ، وانما حنطوا هذا الجسد الأخير لـكى يعطوا للانسان فرصة لـكى يلبس الجسد الجديد .

ووجود خلافات بين معتقدات قدماء المصريين و بين ايمـــان المسيحيين لا يضعف من الحقيقة التى نقولها ، وهى ان رجاء الخلود موجود فى وجدان الانسان على صورة ما فى مختلف الاماكن وعلى مر العصور .

وما من رغبـة طبيعية أو غريزية وُجدت فى كائن حى ، إلا وُجِدَ لها ما يشبعها . ان البطة تخرج الى الحياة ولها رغبة فى السباحة ، إذن لا بد أن يوجد الماء الذى فيه تعوم . وفى الانسان غريزة الجوع فلا بد اذن من وجود طعام يغذيه .

وقياساً على ذلك فان وجود رغبة طبيعية فى نفس الانسان نحو الخلود هو من أقوى الأدلة على صحة هذا الخلود الذى يمكن أن يشبع هذه الرغبة .

ثم ان الانسان يختلف عن الحيــوان فى انه يتبع قانون الأخلاق وتتحكم فى تصرفاته قيم خلقية ليست بأى حال من الأحوال خاضعة لحـكم المـادة أو الزمن . فالحيوان مثلاً تتحكم فيه غريزة الجوع والتكاثر والدفاع عن الذات وما اليها . وكلها ماديات زمنية، لكن الانسان يتمتع بجانب خلقى خارج عن نطاق المـادة والزمن لا يمكن أن يشبع بإشباع الغرائز الجسدية والزمنية وحدها . إن ادراكنا لهذه الحقيقة يؤكد لنا أن الانسان خلق ليحيا ، لا في هذه الحياة الزمنية وحدها بل ليرث حياة خالدة من بعدها لا تحدها المادة ولا يقيدها الوقت . إن هـذا البرهان هو ما تناوله الفلاسفة منذ القديم باسهاب. فأطال فيه أفلاطون في محاوراته التى نسبها الى أستاذه سقراط فى الفيدون Phaedo .

إن الانسان منذ نعومة أظفاره يحس بتأثير الناموس الخلقى عليه ،و يسمع الهمس في أذنه : ينبغى أن تعمل هذا وتترك ذاك . لـكن هذا الناموس الخلقى يصبح بلا معنى لو لم يكن فى استطاعة الانسان أن يتمم مطاليبه . لذلك فان كل واجب تصحبه إمكانية للقيام به . غير أن هـذه الامكانيات جميعـاً تقصر عن أن تتمم مطالب الناموس الخلقى فى هذه الحياة الدنيا . وما من انسان ــ عدا المسيح الذى هو فى الوقت نفسه الله ــ استطاع أن يكمل مطاليب قانون الأخلاق فى حياته الأرضية . إن بولس نفسه قال : « ليس أنى قد نلت أو صرت كاملاً ولـكنى أسعى » (فيلبى ٣ : ١٢) . فمطاليب الناموس الخلقى إذن أبدية ولا يمكن أن تجاب كلها فى هذه الحياة الأرضية . فاذا لم يُعط الانسان حياة خالدة فيها يكمل هـذه المطاليب الخلقية فان حياتنا هذه لا تزيد عن كونها وهماً وخيالاً .

ولأن الانسان يحس فى قرارة نفسه بخلوده ، فانه لا يكف عن أن يرسم لنفسه برنامجاً ضخماً وآمالاً عريضة لا يمكن أن تكفى هذه الحيـاة الأرضية لتحقيقها .

ان فى قلب الانسان محبة ، والمحبة عاطفة خالدة لا يقوى عليها الزمن ولا يحدها الموت . لهذا كتب شارل كنجسلى على قبر زوجته : « أحببنا ونحب وسوف نقيم على الحب » « Amavimus, Amamus, Amabimus » . فسواء كان الخلود حقيقة أم لا ،فان الذى لا شك فيه هو أن الانسان خلق لكى يحيا كما لو كان خالداً - ولا أستطيع أن أقبل أن يكون الانسان خالداً بطبعه وصفاته وخليقته ، ولكنه فان فى حقيقته ، فلقد صدق أرسطو فى قوله : إن الله والطبيعة كليهما لا يعملان شيئاً عبثاً و بلا معنى وهدف . كما قال الدكتور مارتينو : ان حياه الانسان منا تقاس طولها بعشرات السنين ، ولو أردنا أن نتخيل انساناً يخلقه الله لكي يعيش حياة طولها آلاف آلاف السنين بدل عشرات السنين ، لما تخيلنا إلا الانسان على صورته الحالية . فان نفس الانسان الحالية خالدة وفيها كل الإمكانيات التى تمكنها من أن تبقى آلاف السنين بدل عشراتها .

إن الانسان الذى يفضل الصدق - حتى ولو كان ذلك مؤذياً لجسده - على الكذب - حتى ولو كان الأخير نافعاً له مادياً - لا يمكن أن يكون مقيداً بقيود المادة والزمن لأنه يحيا بمقتضى معايير وقيم خالدة .

(٢) مستمدة من طبيعة الله :

إن بعض المواضيع الروحية - كمشكلة الألم أو رجاء الخلود - يزول عنها غموضها ،لا عن طريق دراستها هى و إنما عن طريق معرفة الله . وليس الله عندنا - نحن المسيحيين - مجرد قوة خارقة تطالبنا بواجبات ، و إنما هو أب حنون عطوف يحبنا أيما حب (لوقا ١٢ :٢٢-٣٢ ، لوقا ١١ :٢ ، ١ يوحنا ٣ :١) . وليست المسيحية هى القيام بمطاليب وواجبات يطالبنا بها الله و إنما هى صلة عميقة وثيقة بين الانسان و بين الله . إنها صداقة قوية تقوم بين الانسان وخالقه . ولا يمكن لهذه العلاقة الخالدة مع الله الخالد أن تنتهى عند القبر . ان الله الذى يهتم بالانسان كفرد ، و يحبه

محبة أبدية عميقة ، ويرضى أن يضحى ويأخذ صورة انسان لـكي يفدى الإنسان ـ إن إلهاً كهذا لا يمكن أن يتخلى عن الانسان عند الموت ، وأن يقطع هذه العلاقة التى أقامها معه بعد سنين قليلة وقد ضحى فى سبيلها حتى التجسد والصلب . إننى لا أستطيع أن أتصور أن المسيح يبذل نفسه عن انسان فانٍ مآله الى الفناء ومصيره الى تراب .

إن الفنـان بعد أن يرسم صورة جليلة قضى فى إخراجها عمراً طويلاً ووضع فيها جزءاً من نفسه يمتلىء قلبه بالحب من نحوها ، ولا يقبل أن يتخلى عنهـا أو أن يمزقها بيده ويلقى بها فى سلة المهملات . فكيف يقبل الله ما لا يقبله أى فنـان أصيل على نفسه ؟ إنه من غير المعقول اطلاقاً أن يهتم الله بالانسان ويهذبه ويتخذه صديقاً له فترة من الزمن تقاس ببضع عشرات من السنين ، وبعـدها يطوح به الى ظلمة القبر قائلاً له : « هذه نهايتك ، فلا حياة لك بعد اليوم ». لقد كان ابرهيم فى حياته خليل الله ولم يستطع الموت أن ينهى هذه الصداقة ، بدليل قول الله بعد موت ابرهيم « أنا إله ابرهيم ». والله إله أحياء وليس إله أموات .

لقد كان هذا هو الأساس الذى بنى عليه القديسون ايمانهم بالخلود . فما كان أولئك من الفلاسفة وإنما كانت لهم معرفة بالله وطبيعته . وقد قادتهم هذه المعرفة الى الثقة فى خلود نفس الانسان التى أحبها الله وتنسم فيها من روحه . وهنا يظهر الفرق بين حديث الفلاسفة حتى فى أسمى مراتبه ، كما يظهر مثلاً فى محاورات أفلاطون فى الفيذون ، وبين حديث أيوب إذ يقول «أما أنا فقد علمت أن ولىّ حى والآخر على الأرض يقوم وبعد أن يفنى جلدى هـذا وبدون جسدى أرى الله» (أيوب ١٩ : ٢٥ ، ٢٦).

واذا ما تأملنا فى عـدالة الله وجدناها ــ شأنها شأن محبته ــ تحدثنا عن خلود الانسان . فالذى لا شك فيه أن العدل فى عالمنا هذا مقيد لا يأخذ حقه . فـكم من برىء يضام فى هذه الحياة بينما يتمتع شرير أثيم الى جواره بالحياة رغيدة ومديدة .

وكم من ظالم بنى نفسه على أساس ظلم الآخرين وارتقى فى حياته على سلم بنيت درجاته من أجسام الأبرار والمحرومين . ان العمل الواحد يقوم به قويٌّ ذو نفوذ فيمتدح ويُمجد ، ويقوم به ضعيف غير ذى نفوذ فيُذم ويحتقر .

العدل فى الأرض يُبكى الجن لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين إن صغروا
والمجد والفخر والاثراء إن كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الروح لا تدرى به البشر

فاذا كانت هذه هى حال العالم ، وذلك هو عجز العدالة فيه ، فكيف يمكن أن ترضى عدالة الله المطلقة على هذه الحال . ان كان الله موجوداً على الإطلاق فهو لا بد أن يكون عادلاً ، وعدله يؤكد وجود حياة بعدهذه الحياة الأرضية ينتصر فيها الحق على الباطل ويهيمن فيها العدل .

وهنالك صفة أخري من صفات الله تحقق لنا خلود الانسان ، تلك هى أزلية الله وأبديته . ان الله خارج عن نطاق الوقت ، والزمن بالنسبة له لا ينقسم الى ماضٍ وحاضر ومستقبل وانما كله حاضر لديه . فلا يجوز إذن أن نتخيل الله فى وقت من الأوقات متعاملاً مع الانسان ومقيماً صلات قوية معه، ثم نتخيله بعدبضعة أعوام وقد انعدمت هذه الصلات وتلاشت، وكأنها أضحت بالنسبة لله ماضياً لاحاضر له . وهو الذى كل الوقت بالنسبة له حاضر لا ماضى فيه .

ثانياً . أدلة روحية :

ولقد أشرنا الى بعض هذه الأدلة الروحية فى حديثنا عن طبيعة الله وفى حديثنا

عن ايمان الانسان فى مختلف العصور بالخلود . وعندى أن الأدلة الروحية هى من أقوى البراهين على الخلود . فاذا قال الوجدان الطبيعى ونادت البداهة العقلية عند الانسان فى عصره الأول وعند الانسان فى القرن العشرين بخلود نفسه، فاننا لا نستطيع أن نتجاهل هذا الشعور الطبيعى المشترك بين العصور المتباينة والبقاع المتنوعة .

ان المسيحية تعلمنا أن الله خلق الانسان على صورته (تكوين ١:٢٦ ، ٢٧) ونفخ فيه نسمة حياة من عنده وأودعه روحه (تكوين ٢:٧) . فاذا كان الله خالداً وهو لا بد أن يكون كذلك، وإلا لما كان إلهاً ـ فلا مفر من أن يكون الانسان خالداً مثله .

ان الكتاب المقدس ملىء بالآيات الصريحة التى تشير الى حياة آتية خالدة . وسنذكر هنا بعضها على سبيل المثال : « أما أنا فقد علمت أن وليّ حى والآخر على الأرض يقوم وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله » . (أيوب ١٩:٢٥ ، ٢٦)

« لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيّك يرى فساداً » (مزمور ١٦:١٠)

« يَبْلع الموتَ الى الأبد » (اشعياء ٢٥:٨)

« تحيا أمواتك ، تقوم الجثث » (اشعياء ٢٦:١٩)

ورؤيا حزقيال للعظام اليابسة وقد كساها الله لحماً وأعاد اليها روحاً (حزقيال ٣٧)

« وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدى » (دانيال ١٢:٢)

واقامة اليشع ابن الأرملة (٢ ملوك ٨:١)

وإقامة ايليا ابن أرملة صرفة صيدا (١ ملوك ١٧ : ١٧—٢٢)

وإقامة المسيح للعازر ولابن أرملة نايين .

قول المسيح « أنا هو القيامة والحيـــاة . من آمن بي ولو مات فسيحيا » (يوحنا ١١:٢٥) .

« آخر عدو يبطل هو الموت » (١ كورنثوس ١٥:٢٦)

« فإنه إذ الموت بانسان ، بانسان أيضاً قيامة الأموات » (١ كورنثوس ١٥:٢٤)

« أين شوكتك يا موت ، أين غلبتك يا هاوية » (١ كورونثوس ١٥:٥٥)

« لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي، فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدي » (٢ كورونثوس ٥:١)

« ثم رأيت سماء جديدة ، وأرضاً جديدة ، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد في مابعد» . (رؤيا ٢١:٨)

إقامة بولس و بطرس للموتى (أعمال ٩:٣٦ و ٤٠ ، ٢٠:١٠)

* * *

غير أن أقوى هذه البراهين الروحية قاطبة ، هو البرهان المستمد من اختبـار المسيح . لقد قال المسيح وهو يسلم الروح : « يا أبتاه في يديك استودع روحي ». (لوقا ٢٣:٤٦) لانه كان موقناً أن الصلة الوطيدة التي كانت له مع الآب لا يقوى الموت على قطعها وانما ستستمر بعد الموت كما كانت قبله .

ثم جاءت قيـامة المسيح من الاموات فأزالت كل مجال للشك والغموض من جهة حقيقة الخلود إذ أنار الحياة والخلود . ولن تكون قيامة المسيح مقصورة عليه ، وانما يعلّمنا الوحي على لسان بولس في الرســالة الاولى الى أهل كورونثوس في اصحاحها الخامس عشر أن القيامة والخلود هما مآل كل انسان .

« الآن قد قام المسيح من الاموات وصار باكورة الراقدين » .

حين أرى قبر المسيح فارغاً أستطيع أن أقول بملء فمي إني أؤمن بالقيامة والخلود.

ان شهادة المسيح هي شهادة شخص خبر الموت ، واختبر الحياة بعده ، ثم عاد ليحدثنا عنها و يؤكد لنا حقيقتها .

ولسنا نقول إن قيامة المسيح من الموت هي الدليل الوحيد على الخلود، وانما هي تاج هذه الادلة . لأننا لو آمنا بالخلود بسبب قيامة المسيح وحدها فاننا نكون كتوما الذي لم يؤمن إلا بعد أن رأى. وفيهذا قال المسيح «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» . (يوحنا ٢٠:٢٩) أو نكون كمن طلبوا من المسيح آية أو معجزة ظاهرة لكي يؤمنوا به فرفض أن يجيب طلبهم على هذه الصورة . ولكننا نؤمن بالخلود لاننا نعرف الله وقد جعلنا أصدقاءه ولن يقوى الموت على هدم هذه الصداقة ، وانما جاءت قيامة المسيح مؤكدة لرجائنا مثبتة لإيماننا . ولسنا بهذا نقول ان الخلود وقف على من عرف الله وآمن بمحبته ، فليس كل من يرغب فى الفناء فان . وانما نقول ان يقين الخلود مقصور على من اختبروا محبة الله وآمنوا بقيامة المسيح .

قبل قيامة المسيح كان الخلود حلماً يراود العقول، ثم أضحى أملاً ، فصار رجاء منتظراً. ثم جاءت قيامة المسيح فحولت الرجاء الى يقين وجعلت الامل حقيقة .

قبل قيامة المسيح كان الخلود شيئاً ننتظره فى المستقبل ، فاصبحنا بعد قيامته نتأكده ونحن فى هذه الحياة ، لانه إن كان المسيح قد قام فاننا لا بد أن نقوم . وجدير بنا أن نذكر أن المسيح قام فى الفصل الذى يقدم فيه اليهود باكورات غلاتهم فى الهيكل اشارة الى أن بقية الحصاد آت عما قريب . فقيامة المسيح عربون قيامة المؤمنين به ودليل خلود الانسان .

ثالثاً : أدلة علمية :

من النظريات التي ينادى بها العلم أن المادة لا تفنى ، وانما يمكن أن تتحول الطاقة المعينة الى نوع آخر من الطاقة . فقطعة الفحم حين تحترق لا تفنى ولاتتلاشى وانما تتحول من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية مع طاقة حرارية . وهكذا لا يكتفى العلم بخلود الروح وانما ينكر فناء الجسد . فجسد المائت لا يفنى وانما يتحول الى مواد معدنية قد يمتصها نبات ، أو قد تتكون منها مركبات مختلفة ولكنها لا تفنى . واذا

ما قال العلم بعدم فناء المادة صدقه الجميع عن طيب خاطر ، ولكن إذا قال الله بخلود النفس فلماذا يكثر المتشككون فى قوله .

ثم نشير اشارة عابرة الى مناجاة الأرواح ، فمع أننى لست أستطيع أن أحكم على صحة أو بطلان هذه الظاهرة لعدم دراستى لها الدراسة الكافية ، إلا أنها قد تكون دليلاً على أن الناس يؤمنون فى داخلهم أو على الأقل يرجون ألا يكون للموت خاتمة المطاف لحياتهم .

و يسلط العلم الأضواء فى هذه الايام على قيمة الذبذبات فى هذه الحياة ، فيقول إن كل ما يعمله الانسان أو يتفوه به يتحول الى ذبذبات تسبح فى الأثير وتقطع المسافات الشاسعة ولكنها لا يمكن أن تختفى بل تبقى خالدة على مر العصور .

وثمة دليل على آخر أشرنا اليه من قبل ، وهو بقاء الادراك والذاكرة عند الانسان رغم التغيير البيّن الذى يشمل معظم خلايا جسمه من يوم الى آخر . فليس الجسد والادراك إذن مرتبطين ارتباطاً يمنع بقاء الاخير بعد زوال الأول .

لقد حاولنا فى هذه العجالة أن نبرهن على حقيقة خلود الانسان بعد موته . ولم نتعرض عن قرب أو عن بعد الى ما يحدث للنفس الخالدة بعد الموت لأن هذا خارج عن نطاق بحثنا . وانما نؤكد ـ مستندين الى مواعيد الله ـ أنه بالنسبة لمن هجر خطاياه وقبل المسيح مخلصاً له ستكون له الحياة الآتية سعادة ما بعدها سعادة الى ما لانهاية . ولئن كنا قد ذكرنا فى بدء هذه المقالة أن الحياة الأبدية ليست مرادفة للحياة الخالدة ، إلا أن اختبار الحياة الأبدية المنتصرة بالمسيح على هذه الأرض هو الضمان كل الضمان على خلود النفس و بقائها .

الفلسفة الوجودية والمسيحية

(للدكتور بطرس عبد الملك استاذ اللغات الشرقية بالجامعة الامريكية ،
وامين صندوق رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى)

الفكر المسيحي والفكر الوجودي

الفكر المسيحي فكر السماء جاء إلى أرضنا ، فتجسد انساناً عاش معنا وشاركنا فى اللحم والدم ، واشترك معنا فى أفراحنا وآلامنا . وسرت قوته فى « وجودنا » فأحيا هذا « الوجود » ورفعه إلى السماك الأعلى .

والفكر المسيحى سام أبدى ، اتخذ كيانه من أبدية الله. « وفى ملء الأزمنة» لامس الأبد عالمنا ، عالم الزمنية والمكانية . فأضاء ظلماته ، لانه جاء فى شخص« نور العالم » ، وأحيا موته لانه تجسد فى « خبز الحياة » وفى « ماء الحياة » ، وأعطاه كياناً حقاً ووجوداً حقاً ، وجود الأبد فى الزمان والمكان ، وكيان الشخصية البشرية المستقلة التى تلامس الأرض وتلمسها فى لحم ودم وعظام ، وحياة واقعية ملموسة ولكنها فى الوقت عينه حياة أبدية رفيعة سامية هى جياة أبناء الله — « أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله أى المؤمنون باسمه » .

والفكر المسيحي عبقرى فذّ لا تحده حدود الفكر البشرى، ولا يتقيد بقيود فلسفة بشرية معينة ، فهو سماوى رائع الى أقصى حدود الروعة فى سماويته ، أبدى رفيع الى أقصى حدود الرفعة فى أبديته . ولذلك يحاول البشر فى حقب متفاوتة أن يجدوا صنواً له بين آراء البشر . ويخيل اليهم انهم قد اهتدوا الى هذا الصنو ، أو اكتشفوا هذا الشبيه به ، ولكنهم بعد حين تنفتح عيونهم فيبصرون أن هذا الرأى

المعين أو هذه الفلسفة الخاصة ان هى الاَّ شعاع من ذلك النور السماوى، وان هى الا قبس من ذلك الوجود النورانى، تمكنوا من اكتشافه لان أبديته لامست ترابيتهم، فأشعلتها نوراً لدنيـا ، ولان سماويته لمست زمنهم ومكانهم فألهبتهما ضياء واشراقاً وحيوية ، ومنحتهما كياناً خاصاً ووجوداً عجيباً مذهلاً ، لانه « وجود » سماوى لدنى أبدى يتخلل « وجود » اللحم والدم والعظام .

المسيحية والمدارس الفلسفية المتنوعة

وهذا ما حدث فى فجر المسيحية ، قَبِل أفراد أفذاذ عباقرة ، الايمان المسيحى فاعتقد فريق منهم انه صنو لفلسفة افلاطون ولو انه يسمو بما لا يقـاس على فلسفة افلاطون سمو الأبد على الزمن. ولذلك ارتدوا ثياب الفلاسفة وجالوا ينادون بالمسيحية فلسفة الحياة الفضلى .

وفى العصور التى تلت فجر المسيحية أو على وجه التحديد من نهاية القرن الثاني الميلادى بدأ المفـكرون بالنظر الى الفـكر المسيحي من زاوية «الافلاطونية الحديثة». ثم اتجه فـكرهم الى زاوية معينة هى زاوية فلسفة افلوطين المصرى الذى ولد فى مدينة أسيوط وكان له أكبر الأثر على فلسفة القرون الوسطى .

من ثم اتخذ مفـكرو المسيحية زاوية أخرى لينظروا منها إلى الفـكر المسيحى وهى زاوية فلسفة أرسطو ووصل هذا الاتجاه أقصاه فى « توما الاكوينى ».

وما أن جاء عصر الاصلاح فى القرن السابع عشر حتى عاد الـكثيرون الى رؤية كوكب الفـكر المسيحى المتلألىء بمنظار أفلاطون مرة أخرى .

أما الزاوية المحببة الى قلوب كبار مفـكرى المسيحية وقادتهم فى القرن العشرين فهى زاوية « الفلسفة الوجودية ».

منهج الفكر الوجودى

وتعنى الفلسفة الوجودية بالمسائل الوثيقة الارتباط بالوجود الانسانى البشرى، فهى تتجه الى دراسة معنى الحياة الانسانية ، من حيث انها حياة بشر من لحم ودم وعظام، يعيشون فى أوقات معينة و بظروف خاصة راهنة. فالوجود حقيقة الحقائق. والوجود فى عرف الوجوديين يسبق الجوهر . وربما يقصدون بهذا أنك لا يمكن أن تصف شيئاً ما أو أن تعطيه مكانة بذاتها ما لم يكن موجوداً . والوجود فى عرفهم سابق للفكر — وهم فى ذلك يناقضون الفلاسفة الافلاطونيين الذين يقولون بان الجوهر يسبق الوجود ، أو أن الفكر والمثل يسبقان الوجود.

والوجودية محاولة لتجنب فلسفتين متناقضتين كل التناقض — وهما الفلسفة المثالية التى تقول ان الفكر هو كل شىء و يلخصها ديكارت « انى أفكر فلذا أنا موجود » ، والفلسفة الأخرى هى الفلسفة المادية التى تنظر الى المادة بانها أصل كل شىء .

اتجاهات الوجودية

يتجه الفكر الوجودى بقوة الى ابراز الشخصية الانسانية ، ويركز نظره فى الانسان كفرد بذاته وكشخص معين له كيان خاص ، يحيا فى أوقات خاصة وظروف معينة ، يرجو و ييأس ، يفرح ويتألم ، يمرح و يشقى . انه يصل الى كال حقيقة طبيعته ، لا كذرة فى مجموع ، بل كعضو فى المجتمع الانسانى ، له كيانه المستقل وشخصيته المستقلة التى تثبت وجودها .

ومن عجب أن الفكر الوجودى اتجه فى هذا السبيل الى اتجاهين متناقضين : اتجاه قوى نحو المسيحية ونحو الايمان القوى بالله . فوصل الى القمة فى هذه الناحية فى كتابات كيركجارد نبى الوجودية الأول — واتجاه مضاد يكاد يكون على طرف

نقيض من الايمان بالله أو هو مناقض للايمان بالله فعلاً ، ويتقمص هـذا الاتجاه شخصية وكتابات جان بول سارتر .

و« الوجود » أو الوجودية عبارة تنطبق فى عرف هؤلاء الفلاسفة على الانسان فحسب ، أى انك لا تطبق فـكرة « الوجود » أو « الوجودية » على الأشياء أو الجماد . ويقصدون بها خاصية معينة بذاتها أو اتجاهاً خاصاً معيناً فى البشر . فيتجه الفكر عند النظر فى« وجود الفرد » الى مطالب الحياة الأساسية والجوهرية ، فيواجه هذه المطالب فى جدية لا تعرف انحرافاً أو هروباً . وعلى الفكر عندما يقف وجهاً لوجه أمام هذه المطالب الأساسية الجوهرية المتغلغلة فى أعمـاق الـكيان والوجود الانسانى، ان يختار لنفسه اتجاهاً معيناً لمواجهة هذه المطالب ولسدّ هذه الحاجة الملحة فى أعماق نفسه .

ولا يستطيع أن يقرر نوع الاستجابة لهذه المطالب الا الفرد بذاته و بشخصه ، عندئذ فقط يتحقق له « وجوده » فهو لا يعيش فحسب ، والا فانه يعيش على هامش الوجود . انه ينبغى أن يقدر « وجوده » . هذا هو الاتجاه الذى ينبغى أن يتخذه الفرد من جهة نفسه وشخصيته . وتظهر أهمية هذا الاتجاة فى اتخاذه قراراً ، فى ظروف فعلية واقعية ، فى نهج حياته . فمثلاً عند ما يقرر اختيار مهنة الحياة ، أو عندما يقرر اتخاذ شريكة الحياة ، أوعندما يجابه معضلة من معضلات « وجوده »، أو عند ما يتجه فـكره الى حقيقة موته ، يواجه الانسان عندئذ لحظات رهيبـة فى حياته يستجمع فيها كل قواه ليقرر الاتجاه الذى يتخذه ، والذى سيكون له أبلغ الأثر فى حيـاته المستقبلة . ولا يعتبر الوجود حقيقة لمجرد معرفته معضـلاته ومشاكله ، انما يعتبر حقيقياً بمجابهة هذه المعضلات ومواجهة هذه المشاكل والحياة معها والتفـكر فيها واتخاذ قرارات ذات أثر من نحوها .

ونبي الفلسفة الوجودية هو « سورين كيركجارد » الذى يعتبر اكبر مفكرى المسيحية فى القرن التاسع عشر ، وأعظم علماء النفس المسيحيين في العصور المسيحية قاطبة بعد العصر الرسولى .

كان كيركجارد لاهوتياً فذاً ، وكان عبقرياً مبرزاً ، منح بصيرة روحية نفاذة ، واحساساً خلقياً فريداً ، ونشاطاً متأججاً لا يعرف الكلل .

ولد كيركجارد فى الدانيارك فى سنة ١٨١٣ وعاش مغموراً ثم مات مغموراً فى عام ١٨٥٥ – لم يثر اهتماماً ما فى حياته ، ولكنه اكتشف بعد موته وفى أوائل القرن العشرين .

لم يبتدع كيركجارد رأياً فلسفياً معيناً ، ولم ينشىء مدرسة فلسفية بذاتها ، انما عُنى « بالوجود » اكثر مما عُنى « بالجوهر » . « فالوجود » فى رأيه سابق « للجوهر » . انه على طرف نقيض من العقليين، فيقول باستحالة الوصول الى الله أو معرفته عن طريق الفكر العقلى المجرّد . ويقول ان الايمان المسيحى ولو ظهرت فيه بعض المتناقضات – حسب الظاهر – الا انه يتفق تمام الاتفاق والوجود . وأية محاولة لوضع الايمان المسيحى فى قالب من العقلية المجردة ان هى فى عرف كيركجارد ، الاّ ضرب من التجديف لا غير .

فاذا ارتبط الخوف الذى يسرى فى أوصال الانسان بسبب احساسه بالعزلة والانفراد والوحدة فى علاقته بالله ، مع الشعور القوى بمصيره المؤسى ونهايته الحتمية ، فانه فى هذه اللحظة يقف فى حضرة الله مكشوفاً مجرداً من كل زخرف وادعاء ، ويبصر هذا المصير المؤسى المحتوم فى هوله ورعبه ويقول : عندما يصل الانسان الى هذا الشعور بوجوده فى هذا الموقف الرهيب ، فقد التقى الدهر بالأبد ، وقد شق

الأبد لنفسه طريقاً فى عالم الزمانية والمكانية . وعندئذ فقط يشرق الأمل ـ هذا هو الرجاء الحى .

أثر الوجودية فى الفكر اللاهوتى المسيحي

والوجودية كفلسفة تُعنى بمسائل الحياة البشرية الانسانية العميقة ومعضلات الوجود البشرية المتأصلة فى أعماق الحياة ـ وهى وثيقة العلاقة بالفكر المسيحى . فمن هذه الناحية يمكن اعتبار كبار الفلاسفة المسيحيين وجوديين كأغسطينوس و باسكال وميجول دى أونامونو والروائى الروسى دوستوفسكى ـ فكل هؤلاء جابهوا مشاكل الحياة الانسانية وتعمقوا فى درسها وارادوا الوصول الى حلّ لها .

انما كما سبق القول لم تصل الفلسفة الوجودية الى مكانتها كفلسفة يُعتد بها ولها مكانتها المرموقة بين الفلسفات الحديثة الا فى شخص كيركجارد .

و بلغ أثرها فى الفكر اللاهوتى المعاصر فى شخص كبار اللاهوتيين المعاصرين من أمثال كارل بارت ومدرسته ، ونيبور ، و بارديف ، و بول تِليك ، وجون مكاى وغيرهم .

فقد قال كارل بارت « انه ان كانت لدىّ فكرة لاهوتية واضحة ، فهى هذه : اننى أذكر دائماً ماقاله كيركجارد بأن هناك فرقاً نوعياً بين الزمن والأبد سلباً وايجاباً . فالله فى السماء وأنت على الأرض» .

وقد أَلِف قراء كارل بارت هذه العبـــارات « وجود » ، « وجودى » ، « معاصر »،« لحظة »،« ذنب »،« اتجاه عمودى » ، « ضيق » ، « اضطرار » ، « تقرير المصير » وأشباه هذه العبارات الوجودية .

والحق الروحى فى عرف هؤلاء اللاهوتيين هو الحق الممتزج بالاختبار الشخصى الذى يدفع الانسان ثمنه غالياً . ولا تصبح معرفتنا لحق الله ملكاً لنا الا عندما نقرر

أن نقف بجانب هذا الحق بكل قوانا . وهذا القرار منا لا يأتى نتيجة معرفتنا هذا الحق ، بل انه عنصر حى وعامل جوهرى لادراك هذا الحق .

انطباعات وجودية فى الفكر اللاهوتى المعاصر

كتب جون مكاى كتاباً سماه « مقدمة للاهوت المسيحى » . وفى هذا الكتاب تظهر الانطباعات الوجودية فى الفكر اللاهوتى المعاصر . وفى أول فصول هذا الكتاب يتحدث عن « الطريق الحديث الى عمواس » ، ويتكلم فى هذا الفصل عن تلميذى عمواس ، مشبهاً المسيحيين فى العصر الحديث بهما — فيذكر « اليأس الصامت » الذى احتواهما . ويتحدث عن « الأسى الذى يشمل الوجود الانسانى » ، ويتحدث عن مصير الانسان المحتوم ما دام ينهج هذا السبيل البعيد عن الله المنفصل عن السماء . ثم يتحدث عن الشوق المستمر فى قلوب البشر ، وعن الألم الذى يشق أعماق الكيان الانسانى ، اذ لا يجد إرواء لهذه الغلة أو شفاء لهذه العلة المتأصلة فى وجوده إلاَّ أن يتجه ذات اليمين وذات اليسار متلهفاً متشوقاً تواقاً لكن من غير أن يهتدى . يتساءل فى حيرة من غير أن يصل الى جواب شاف .

ثم يتحدث عن انبثاق النور واشراق الأمل وظهور الرجاء . فقد لامس الأبدُ فى شخص يسوع المجيد الأبدى عالم الزمن والمكان — الوجود — فى أشخاصنا . وهذه هى اللحظة الرهيبة ، بل هذه هى اللحظة الرائعة المجيدة .

ثم يتحدث الدكتور جون مكاى فى كتابه هذا فى فصل آخر عنوانه « موقف الشرفة وموقف الطريق » . ويقول : يمكن أن نقف فى الشرفة وننظر الى الحق نظرة الدارس انما عن بُعد ، نظرة المتطلع انما من الشرفة فحسب . هذا هو موقف المتفرج . انما المسيحى الحق هو الذى ينزل الى الطريق ويسير فى الركب ويلامس الابدَ — المسيحَ — وجودَه — فى الطريق ، كما حدث مع تلميذى عمواس . عندئذ ينبثق فى القلب الانسانى فرح الأمل ، ويشرق نور الرجاء الحى .

وان كانت الوجودية تعنى بالحياة الانسانية البشرية كما هى، فمن عرف الانسان مثل ما عرفه ابن الانسان الذى هو رب الانسان ؟ ومن اشتعل كيانه واضطرب وجوده تحنناً على القوم الذين كانوا كغنم لاراعى لها ، مثلما اتقد قلبه هو حناناً عليهم؟ ومن يستطيع أن يعطى البشر فى وجودهم — كمولودين من لحم ودم — أن يصيروا أبناء الله — الا هذا الفادى المجيد الذى ليس بأحد غيره الخلاص، لانه ليس اسم آخر تحت السماء به ينبغى أن نخلص الا اسمه هو وشخصه هو — من ذا الذى آتى ليرفع الوجود الانسانى الى السماك الأعلى الا الذى جاء يطلب و يخلص ما قد هلك؟ فان كان الذين أتوا قبله الى الوجود الانسانى البشرى سراقاً ولصوصاً الا انه فى اللحظة المباركة الرهيبة الرائعة يأتى هو الى الوجود الانسانى الفردى الشخصى، ليكون له حياة وليكون له وجود أفضل ، فيجعل من الوجود الانساني الذى هو لحم ودم وعظام وألم وأسى ودموع وقنوط وحزن و يأس — وجوداً أبدياً — ابناً للنور ووارثاً للملكوت. فجميع الذين يؤمنون به يعطيهم سلطاناً أن يكونوا أبناء الله أى المؤمنون باسمه .

المسيحية والسلام

(للدكتور عزت زكى عضو رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى)

تمهيد

فى مسرحية الكاتب الكبير « هنريك إبسن » بعنوان « البناء الأعظم » يتقدم الكاتب ، فى نهايتها ، بجملة على لسان بطل المسرحية ، مخاطباً الجلال الإلهى بالقول :

« من الآن لن أبنى لك كنائس فيما بعد ... سوف أكون بنّاء أعظم ... سوف أنزل الى الوادى ، وأبنى بيوتاً للبشر ! »

ولقد كانت هذه هى الطعنة الموجهة للمسيحية فى كل العصور : ان المسيحية هى ديانة الحالمين ، وانها لا تقدم ضماناً قوياً للصلات الاجتماعية بين البشر . بل انها تتعدى ذلك ، وتقف موقف المهاجمة السلبية من الناس . حتى ان أبتون سنكلير ، الكاتب الأميركى المعروف ، قد صوّر طبقة الاكليروس ، فى أحد كتبه ، وكأنهم جماعة من النشالين ، يُلْهُون الناس بالتطلع إلى السماء ، ليمدوا أيديهم و يسرقوا مافى جيوبهم . وعلى هذا الأساس قاست الكنيسة الأمرين من الثورات الاجتماعية فى القرون الوسطى ، والعصور الحديثة أيضاً . ولا يفوتنا أن نذكر أن ماتقاسيه الكنيسة اليوم فى الدول التى تأخذ بالنظم الشيوعية ، هو رد فعل لتلك العقيدة الخاطئة السارية فى المجتمع : ان المسيحية لا تقدم ضماناً لتنظيم الصلات الاجتماعية بين الناس . وأنها تعيش فى وادٍ ، والمجتمع فى وادٍ آخر ، وان الدين هو أفيون الشعب — وانه نظام أجوف ضخم خلقته الرأسمالية لتلهى الطبقات العاملة عن المطالبة بحقوقها ، ولتثبت أقدام طبقة من الناس فوق أكتاف الطبقات الأخرى . وهناك أنشودة ساخرة يقاطع بها الفوضويون ، والشيوعيون الاجتماعات الدينية فى الغرب فيقولون :

« إعمل وصل
وستأخذ فطيرة
فى السماء !
بعد الموت ! »

فهلاً تهتم المسيحية حقاً بالمجتمع ؟ وهل يقف المسيح مكتوف اليدين أمام بلايا البشرية ؟ وهل لم يقدم المسيح ضماناً لحفظ حقوق الطبقات المسكينة ؟ وهل تترك المسيحية مشاكل الانسانية ، كالألم ، والخطية ، والحروب ، بلا حل ؟ وهل تريد المسيحية أن تحول العالم أجمع ، كما يظن البعض ، إلى دير كبير يعيش فيه كل واحد ، فى صومعة منعزلة ، يقضى نهاره وليله فى الصوم ، والصلاة ، و ينتظر من السماء أن تمطر له طعاماً ؟ وهل هذه هى فكرة مُلْك المسيح على الأرض ؟

لو رجعنا إلى هنرى دراموند ، فى مجموعة مواعظه التى جمعها فى كتاب « The Greatest thing in the World » لوجدناه يتحدث فى احداها ، عن « المدينة ... أورشليم الجديدة » ـ و يستطرد فى حديثه قائلاً : ان مُلكنا مع المسيح « لن يكون إلا فى « المدينة » ـ المدينة الحرفية ـ المدينة التى نحيا فيها ـ وكلما تقدمنا فى حياة القداسة ، وامتلأنا بروح المسيح ، وحياة المسيح ، تطور المجتمع إلى الأفضل . وساعدنا فى مجىء ملكوت المسيح ...

فالمسيحية تكترث بالمجتمع ، وتهتم بمشاكل المجتمع ، وتُعد نفسها لملك عظيم شامل ، ليس فى مجتمع آخر ، بل فى هذا المجتمع عينه . وديانة المسيح ليست للملائكة ، ولكنها للبشر... لاولئك الذين يعيشون فى الوادى .. لابناء العرق ، والدم ، والدموع ! .

نظرة الى الوراء :

يقول الشيوعى المادى ، ماذا حققت الكنيسة للمجتمع ؟

ويقول الملحد ، ماهو الدور الذى قام به الله فى رفع اعباء البشرية ؟ فالحروب

والأوبئة ، والمجاعات ، ما زالت هي هي منذ بدء الخليقة ... ثم يستطرد في تبجح قائلاً : لو كنت إلهاً ، لخلقت عالماً بغير مشاكل .

ولن أتحدث عن الهيئات المسيحية الاجتماعية المنتشرة في أرجاء العالم — ذات الأسماء المختلفة ، والتي يجمعها معاً ، الهدف الواحد ، والغرض الواحد ، ولكني أرجو بأن ترجعوا الى الوراء ألفي عام — قبل أن يولد المسيح ، وتكون المسيحية . هل كانت أحوال المجتمع أفضل مما صارت اليه الآن ؟ هل نتحدث عن الطفولة ، حيث كان الأطفال يوئدون في بعض المجتمعات ؟ أو قيمة النفس البشرية حيث كان المتفرجون يضجون في الملاعب ، ان لم يشاهدوا تمثيلاً دموياً ؟ وحيث كان الضعفاء والمرضى يُتركون في الغابات لتلتهمهم الوحوش ؟ أم نتحدث عن طبقات العبيد ، وقد كان للسيد مُطلق الحرية بنص القانون ليفعل بعبده ما يشاء إلى حد قتله . وقد روى لنا بعض المؤرخين أن أحد هواة تربية الأسماك ، كان يطعمها من لحوم عبيده ؟ أم نتحدث عن المستوى الأخلاقي ، وهل استطاعت القوة أن تسند المجتمع الروماني ، حينما دب فيه الفساد ، فتداعى؟ أم هل استطاعت الحكمة أن تمنع المجتمع اليوناني من الانسياق في التيار الرهيب ، فتدهور ، واضمحل؟ وهل نتحدث عن المرأة ومقامها الاجتماعي . وان كانت هذه هي الحالة في أرقى المجتمعات حينذاك ، بين اليونان والرومان ، فكيف كانت الحالة بين القبائل البربرية المنتشرة بين الغابات والأحراش والأصقاع النائية ؟

وهل يرى القارىء وجهاً للمقارنة بين الحالة الاجتماعية في القديم ، وبين الحالة الاجتماعية في عصرنا الحاضر ؟ لقد أشرقت شمس البر والشفاء في أجنحتها ، ليس على الدول التي ترفع علم الصليب فحسب ، بل على الانسانية جمعاء . وحتى الدول الوثنية أصبحت وثنيتها نقية مصفاة . ودخلت ألفاظ جديدة إلى قاموسها الاجتماعي كالرحمة والمحبة ، والاحسان .

قصارى القول ان المسيحية خلقت المجتمع الحاضر الذى نعيش فيه . وما المدارس والملاجىء ، والمستشفيات ، والأديرة التى كانت فى وقت من الأوقات منار للعلوم ، والعرفان ، ما هذه جميعها إلاَّ بعض ثمار المسيحية .

وفى عام ١٨٣٣ أى منذ قرن وربع على وجه التقريب ، استطاعت المسيحية أن تسجل انتصارين عظيمين فى دوائر المجتمع الانسانى . ففى تلك السنة استطاع ولبرفورس ، وكلاركسون ، أن يقضيا على آفتين اجتماعيتين خطيرتين وهما الرقيق الأسود ، والرقيق الأبيض على السواء ، وسنّت القوانين لذلك . وتوالت القوانين أيضاً لحماية حقوق العمال فى السنوات التى تلت ذلك .

ولكن ما زالت هنـــاك آفة اجتماعية خطيرة تقف كعقبة كأداء فى وجه المسيحية ، الا وهى :

الحروب :

فمنذ أن حدثت أول جريمة قتل فى تاريخ الإنسانية ، بين قايين وهابيل ، والمصالح المتشابكة تدفع الأخ إلى قتل أخيه ، والدولة إلى القيام على جارتها ، وها هى الدول فى الوقت الحاضر تستعد لحرب ضروس ، وكأنما لم يكفها ما حدث فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، فهى تعد نفسها لحرب ثالثة تُعد الحروب الأولى بالنسبة لها لعب أطفال . . . فما هى الأسباب الرئيسية للحروب ؟

ان أعظم سبب للحرب يتلخص فى كلمة واحدة: الفوضى ، وعدم الانسجام ، أو عدم التوافق . . .

عدم التوافق الاجتماعى . ، . عدم التوافق الفكرى . . . عدم التوافق العقائدى ... وعدم التوافق الاقتصادى فى كافة ميادينه ... عدم التوافق الطبقى . ولنأخذ مثلاً لذلك المانيا بعد الحرب الأولى . . فقد خرجت المانيا بعد الحرب العالمية الأولى مهزوزة، مضطربة ، ممزقة ، محاطة بالأعداء .. وفرضت عليها إتفاقية فرساى قيوداً قاسية . . وكان من المنطقى، أن شعباً عريقاً ، قوياً، ناهضاً، كالشعب

الألمانى، لا بد وأن يحطم هذا الوضع الغريب الجائر. وهكذا وقعت الحرب العالمية الثانية كنتيجة لأخطاء الحرب الأولى.

وهناك أيضاً سبب آخر، التنافس الاقتصادى والمطامع التى لا حد لها والرغائب الاستعمارية فى قلوب الشعوب الكبرى . . .

ان أرض الله واسعة، وخيرات الله تكفى العالم وتزيد. فلماذا هذا التكالب الاقتصادى، والمطامع التي لا مبرر لها؟ ذلك لأننا نسينا أن نتجه إلى الله . . . ذلك لأننا وضعنا المادة . . . المادة فقط نصب أعيننا. ذلك لأننا بنينا حضارتنا، ومستقبلنا ومقوماتنا على أسس مادية محض... وما دام الأساس غير سليم، فلا بد أن ينهار البناء كله . . .

يقول أوغسطين فى كتابه «مدينة الله»:

«متى استخدم كل انسان منا الوسائل الطبيعية التى بين يديه فى حدودها المشروعة المعقولة، فحينذاك يصبح فى صلة طيبة مع الله ومع أخيه الانسان. أما المطامع التي لا حد لها، فلن تجلب للانسانية إلا الشقاء والمتاعب ..»

على أن هناك سبباً آخر، هو فى الواقع سبب نفسانى وهو الخوف من الحرب! فالناس من خوف الحرب فى حرب! وكل الناس يبتغون السلام، ويسعون للسلام، وينشدون السلام، ويتسلحون لحماية السلام!! وكما قال أوغسطين «كل الناس يبتغون السلام، ولو عن طريق الحروب. ولكن ولا واحد يتجه إلى الحرب كغاية فى حد ذاتها». فكل دولة تتسلح، وتحارب فى سبيل حماية حمامة السلام. وسباق التسلح يولد الضغط الاجتماعى الذى لا بد أن ينتهى بالانفجار . . .

وهناك أسباب أخرى يكفى الأشارة إليها، وهى النعرات الطائفية والنعرات العنصرية . . . والنعرات الدينية . . الخ . .

فما هو موقف المسيح من الحروب؟

ان تعاليم المسيح تناقض فكرة الحروب مناقضة صارخة، فالمسيح ينادى

بأبوة الله ، وأخوة البشر ، والحرب تنكر سلطان الله، وتحطم صلات البشر. إنجيل المسيح هو الخلاص للأنسان ، والحرب هدفها هلاك الانسان . انجيل المسيح يضع النفس الانسانية فوق العالم بما فيه، والحرب تحتقر قيمة النفس الإنسانية ، وتعتبر الإنسان صفراً فى ناموس المجتمع . .

وما هو موقف الكنيسة ؟

يقول البند السابع والثلاثون من قانون كنيسة انكلترا: « من الأمور القانونية اللازمة ، بالنسبة للمسيحى، أن يحمل سيفه بأمر من الحاكم ، ويخدم فى الميدان ».

و يقول أحد البنود فى قانون نشرته هيئة كاثوليكية : « ليس من الأمور غير الجائزة أن يخدم المسيحى فى ميدان الحرب على شرط أن تكون حرباً عادلة . . . »

ثم تضع الهيئة شروطاً للحرب العادلة فتقول :

١ — أن تكون بموافقة وتدبير هيئة حاكمة شرعية .

٢ — أن يكون لها سببها المعقول الذى يتناسب وعظم التضحيات التى تستلزمها.

٣ — أن تلجأ البلاد اليها بعد أن تفشل كافة الوسائل السلمية .

٤ — أن تكون هناك فرص معقولة لنجاحها .

ثم يضيف القانون ، وعلى المقاتل أن يراعى قوانين الحرب ، وألا يترك الحقد الأعمى يطغى عليه ، و يدفعه إلى عمل غير مشروع بالنسبة للأسرى والمدنيين . . .

فلنستمع إلى رأى غاندى :

إبان الحرب العالمية الثانية قامت الكاتبة المعروفة « إيف كورى » إبنة مدام كورى ، بجولة فى جميع ميادين القتال ، وقابلت أقطاب الدول المحاربة ، وجمعت إختباراتها ورحلاتها فى كتاب جميل شائق — تربو صفحاته على الخمسمئة صفحة

بعنوان : « بين المحاربين ». وفى فصل من هذا الكتاب سجلت الكاتبة حديثاً دار بينها ، وبين المهاتما غاندى — قال لها الرجل العظيم :

« اننى أقف ضد الحروب ، اننى لا أومن بالقوة ، واننى أعتقد بأن السياسة السلمية ، سوف تتيح للهند أن تصبح رسولاً للسلام بين شعوب العالم أجمع . لقد حصلت الهند على أكاليل الغار بالمقاومة السلمية... المقاومة السلمية ولا شىء عداها. وانى أومن بأن أى شعب مضطهد يستطيع أن ينال كافة حقوقه بهذا الطريق الأوحد لا سواه . . . »

وسألته الكاتبة الفرنسية: «ولكن كيف تستطيع ان تقف على قدميك بدون سلاح فى وجه عدو مدجج بالسلاح؟ أوَ لا ترى بأن الانكليز لم يكونوا جادين فى التعامل معك فى إخماد ما تسميه المقاومة السلمية ؟ وها هم يتركون لك حرية الفكر والخطابة، وحرية قيادة الجماهير — فماذا يحدث لو لجأوا الى طريق العنف؟

فيجيب الرجل العظيم «إن ما يفعله العدو بك فى مقاومتك السلمية له لن يزيد عن أحد أمرين اثنين: فهو اما أن يصل إلى إتفاق معك . وحينذاك قد وصلت إلى غايتك بدون اراقة دماء ، واما أن يتخذ طريق العنف، ولن يكون اكثر انتصاراً بذلك». والشواهد التاريخية تشير إلى صدق هذه النظرية . ففى الوقت الذى حاولت فيه الأمبراطورية الرومانية أن تخمد أنفاس المسيحيين بالحديد والنار ... وفى الوقت الذى سالت فيه دماء المسيحيين أنهاراً فى شوارع روما ، فى ذلك الوقت عينه سجلت المسيحية إنتصارها على قوى الظلم والطغيان ، لا بالسيف ، ولا بمقابلة المثل بالمثل ، بل بروح المسيح الوديع المسالم . وفى الوقت الذى كانت الأمبراطورية تحفر قبور المسيحيين ، كانت تحفر قبراً كبيراً لنفسها ، ولم يلبث أن إرتفع علم الصليب الجبار الوديع فوق كيان الأمبراطورية المتداعية . وهكذا صدقت تلك النبوة التى هتف بها أحد أباطرة الرومان ، وهو على فراش الموت ، تلك النبوة التى دوت عبر التاريخ والأجيال ، حينما قال: «لقد إنتصرت أيها الناصرى» . .

ولنأخذ شاهداً آخر، الحروب الصليبية — هل إستطاعت أن تحقق أغراضها ؟ لقد نسى أمراء أوربا تعاليم المسيح ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يمحقوا السيف بالسيف ، ويطفئوا النار بالنار ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى الاعتراف بصدق تعاليم ملك السلام .

ولقد فطنت الشعوب إلى تفاهة الحروب وشرها ، فانشئت هيئات السلام كمؤتمر استكهولم ، وتكونت هيئة الأمم من بعد عصبة الأمم، وصعدت صرخات الشعوب منادية بالسلام، ونزع السلاح ، وتحريم الأسلحة النووية، والحد من سباق التسلح ، وإيقاف الحرب الباردة ، ومنع التكتلات العسكرية ، وإنشاء الجيش الدولى ، وغيرها ، واننا نرجو أن يعتبر العالم بالتجربة القاسية التى مرّ بها فى الحرب الاخيرة ، ويمتنع كبار الساسة عن أن يسوقوا العالم إلى حريق قاس مدمر ، ونهاية رهيبة مروعة .

أسس السلام :

وهذه مجموعة من البنود العملية التى نرجو أن يتحقق السلام بالسير بمقتضاها :

١ — أن يعتبر الإنسان نفسه وحدة لا تتجزأ من مجموع العالم كله. ومواطناً عالمياً فى دولة عظمى هى دولة الإنسانية . وعضواً فى هيكل كامل موحد هو مجموع الأمم، وفرداً من أفراد أمة واحدة ينتفى فيها الجنس ، واللون، والحدود ، والقيود ، والفوارق الطائفية ، والمذهبية ، والفكرية . . .

٢ — على الأنسان أن يدرك أنه لا يستطيع أن يحقق فى ذاته الأكتفاء الذاتى. عليه أن يمد يد المصالحة للعدو، والصديق على السواء . ولتكن هناك صداقة — على الأقل صداقة المصالح المشتركة .

٣ — علينا أن نطبق تعاليم المسيح فى حياتنا. فنداء المسيح للسلام، ليس نداءً خيالياً، والحرب سلاح ذو حدين يقضى على الغالب، والمغلوب على السواء ، وخصوصاً فى هذا العصر الذرى الذى نعيش فيه — والذى يتهدد الانسانية بكارثة مروعة .

(٤) وعلينا أن ندرك أن الحرب خطية — خطية يلزم التوبة عنها ، والصلاة بحرارة من أجل محو شرها . وما أجمل أن تتحد الكنائس معاً على اختلاف طوائفها بنداء موحد شامل للسلام ، و بمجهودات فعلية فى سبيل ذلك .

(٥) وحتى يأتى ذلك الوقت السعيد الذى ينتظره كل انسان ، ذلك الوقت الذى تتغلغل فيه تعاليم المسيح فى قلوب الجميع ، وتسود تعاليمه على العالم أجمع ، علينا أن نتذكر قول الرسول: « اخضعوا للرياسات والسلاطين الفائقة لان كل سلطان جسدى مرتب من قبل الله ». وان كان يؤلمنا حتما أن نمسك بالمدفع ، ونقتل اخوتنا فى الانسانية ، فانه من الأمور الأكثر إيلاماً أن يتهم المسيحى بتهم باطلة ، و يسبب اضطراباً وانزعاجاً فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وأخيراً . . .

فى المسيح وحده رجاء الانسانية :

ابان الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٢ تجمع عدد كبير من النساء والأطفال والعجائز فى محطة لندن لوداع فوج من الجنود وهو فى طريقه إلى ميدان القتال — وكان بين المودعين الزوجة ، والأم ، والابنة ، والابن ، والوالد العجوز الذى يتوكأ على عصاه . وأزف ميعاد تحرك القطار . وارتفعت مئات المناديل تلوح فى الفضاء . وطفرت الدموع من العيون وارتسم الأسى على الوجوه .

وتحرك القطار ينهب الأرض نهباً . وفي داخل العربات المخصصة للجنود كنت تشاهد مزيجاً عجيباً من شبان لم يتجاوزوا التاسعة عشرة من العمر، وكهولاً ، جاوزوا الخمسين ، ورجالاً فى مقتبل العمر — وجميعهم يسود عليهم الوجوم . كان البعض يدخن بعصبية ظاهرة ـ والبعض الآخر يقرأ آخر الانباء . وثالث يتطلع من نوافذ القطار .

وفجأة حدث شيء تافه للغاية .

فقد ضلّ طفل صغير طريقه إلى حيث تجلس أمه في العربات المخصصة للمدنيين، وتقدم إلى احدى عربات الجنود ، وتطلع حوله ثم هتف قائلاً : « هـــالو ... نهاركم سعيد .. »

وارتسمت الابتسامات على الوجوه . وتقدم جندي من الطفل يربت على كتفه، وبحث آخر في جيبه عن قطعة من الشوكولاته . وتقدم ثالث بجريدة مصورة ـ وجاءت الام معتذرة . وحملت الطفل وهي تقدم شكرها بابتسامة رقيقة . لكن جواً من المرح والسلام بدأ يسود العـــربة ، وعادت الابتسامات والاحاديث الضاحكة .

واننا نثق انه خلف الحروب، والدمار ، والنيران ، والمآسي ، والاشلاء ، والدماء والقنابل النووية ، والاسلحة الفتاكة ، سيقف السيد له المجد ، في يوم من الأيام ، ويهتف بالعالم المجنون بالقوة :

« سلام لكم » !

وعندها ...

« يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل .. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ، بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته ، وليس من يُرعِب ».

« فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدى . والبقرة والدبة ترعيان . تربض أولادهما معاً . والاسد كالبقر يأكل تبناً. لان الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطى المياه البحر » .

المسيح والوطنية

(للاستاذ ابراهيم مطر رئيس تحرير مجلة « القشرة » ببيروت
وسكرتير فرع رابطة الكتّاب المسيحيين بلبنان وسورية)

توطئة

غير خاف أن عالمنا متغير ومتبدل . وها كل شيء حولنا تناولته أيدى التغيير والتبديل بسرعة هائلة . وقد كان نصيب الوسائل المادية من التغيير كبيراً ، فى حين أن النزعات الروحية والاتجاهات الأخلاقية لم تتبدل . ويواجه العالم الآن فى أكثر من رقاع الأرض ثورة فكرية شاملة ، ذلك لأن نظم الماضى وأوضاعه باتت موضع شك وارتياب ، وقد يكون ذلك ناجماً عن الوعى الاجتماعى المتزايد ، والشعور بأن النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هى من مخلفات عصور عفا عليها الزمن وأكل الدهر عليها وشرب .

ولشدّ ما أخذ الانسان العصرى يفقد ثقته فى تقاليد الماضى وأديانه . انه اشرأب بعنقه إلى الأنظمة الجديدة التى يهدف اليهـا عالمه . وفى أكثر الأحيان كانت الأزمات معواناً لانطلاق الناس ، وداعياً لهم لأخذ أوضاع جديدة . وفى القديم عند ما كتب القديس أوغسطين كتابه عن « مدينة الله » ، كان العالم فى أحلك ساعاته ، فالامبراطورية الرومانية العظيمة كانت مهددة من البرابرة ، وعلى وشك التدهور والسقوط . بيد أن تباشير حضارة مسيحية أعقبت تلك الأزمنة الخانقة ، فعملت على التمهيد لعصر النهضة الحديثة واليقظة الفكرية الشاملة .

وهذه الحروب التى أثارها الانسان على مدى الأجيال قديمة العهد . غير أن

حروب هذه الأزمان تمتاز على سابقتها بشمولها و بإشتراك شعوب كثيرة بها، و بإستخدامها الأسلحة العصرية الفتاكة. ولهذه الحروب على الرغم من مآسيها وصورها الحالكة حسنة وهى أنها تمهد لعصور جديدة، وظهور حضارات ودول ما كان لها شأن يذكر فى الماضى.

وعلينا أن نلاحظ بأن عالمنا مهما تغير وتبدل، لا يستغنى عن تراث الماضى. ففى ميادين الشعر ما برحت قصائد هوميروس ومسرحيات شكسبير تحتل مكانة ممتازة فى خزانة الآداب العالمية. كذلك لا يمكن للفلسفة الحديثة أن تستغنى عن تقدمات ذلك المثلث الفكرى الجبار « سقراط وأفلاطون وأرسطو » . . .

وهذه مبادىء السيد المسيح التى مضى عليها زهاء الألفى سنة مابرحت بالرغم من مرور الزمن عليها مفيدة وصالحة لهذا العصر ولكل العصور.

وها هم علماء الاجتماع فى عصور هذه الحضارة الرفيعة لم يستطيعوا أن يزيدوا شيئاً على مبادىء العظة على الجبل، تلك المبادىء التى ما برحت تشكل القواعد الأساسية للأخلاق الفردية والاجتماعية. و بالرغم من هذا التقدم العظيم فى شتى مناحى الحياة المادية، فان طريق الناصرى ما برحت هى الطريق المثلى للسلوك الإنسانى والحياة الكاملة.

يعيش عالمنا الآن على فوهة بركان، وها هى علامات الانتفاض والانقلاب تتراءى فى كل مكان وتلمس فى معظم البلدان. ومصدر هذا الفوران والتحفز للثورة وتغيير الأوضاع، هى رغبة الانسان العصرى فى نيل حريته، وسعيه للحصول على المساواة ودأبه للعمل على تحسين حالته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولا يخفى بأننا نعيش وسط عالم مادى نستنشق هواءه ونشرب ماءه ونتحسس مفاعيله، وكذلك نحن نعيش فى عالم ذاتنا الخاص وفي جو أفكارنا وعواطفنا. ثم اننا

نعيش فى دنيا الناس وفى عالم انسانى واسع. ويسعد الإنسان ويرقى حقيقة اذا ما خرج من جو أنانيته الضيق الى آفاق عالم انساني واسع.

والكنيسة المسيحية مُطالبة بأن تساهم فى المجهود الإنسانى المستهدف رقى الإنسان وتغيير أوضاعه. هى مدعوة لأن تعمل لتحقق ارادة الله فى تاريخ البشر. ولا يمكن للكنيسة أن تظل متفرجة، واقفة على الشرفة، بعيدة عن تيارات الحياة المتدفقة على جمهرة الناس. بل يترتب عليها أن تلعب دورها كما فعلت فى الماضى. وعلى قادة هذا العصر المسيحيين أن يشجعوا استكشاف الموارد الروحية التى توجه البشرية توجيهاً سلبياً، وأن يُقبلوا على النظم السياسية التى تستهدف النظام بدل الفوضى، والإستقرار بدل الاضطراب.

العناصر التى تكون الأمم :

ولنستعرض الآن أهم العناصر فى تكوين الأمم. لأن من الأمة تنشأ الدولة الحاكمة. فأول ما يبرز أمامنا هى رقعة الأرض، ولا ينكر أحد فضل الأرض فى تكوين الأمم.

ثم ان هناك العرق، فدماء الأمة الواحدة تحمل خصائص مادية ومزايا روحية متوارثة مصدرها العرق الذى نشأت الأمة منه. واللغة عامل هام آخر فى تكوين الأمم، اذ فى وسع اللغة الواحدة أن تصنع أمة واحدة.

وكان الدين فى الماضى عاملاً فى جمع الشعوب. وإن يكن أثره فى تكوين الأمم فى الزمان الحاضر قد أخذ يتضاءل ويقل، إلا أنه ما برح يكوّن عنصراً هاماً لا يمكن التغاضى عنه. كذلك العادات والتقاليد فهذه لها أثر كبير فى توحيد الصفوف، ولمّ شعث أفراد الأمة الواحدة. فالأغانى الشعبية والتاريخ القومى وأساليب العيش – كل هذه تساعد على تكوين القومية وإظهار العبقرية فى الشعب الواحد.

وهذا التراث القومى بأمجاده ونكباته أيضاً عنصر عظيم فى تكوين الأمم وخلق الشعوب ، لأن الحاضر الذى يحياه هؤلاء إنما صنعه لهم أجدادهم من قبلهم .

الحرية والنظام :

وتبدو المشكلة الأساسية للحياة السياسية فى حفظ التوازن بين الحرية والنظام. ويبدو أن النظام يناقض الحرية ، اذ انه يضع حدوداً لها ، فى حين أن الحرية تعنى التحرر من القيود . لكن الواقع أن لا حرية فردية اذا انعدمت الحرية فى المجتمع ، فكل شىء يتوقف على حفظ هذا التوازن بين الحرية والنظام فى كل الظروف . وهذه هى مهمة الدولة .

والحضارة الغربية الماثلة أمامنا بأمجادها وتراثها ومقدراتها هى حضارة سياسية اتخذت لها مصدرين أساسيين : الحضارة الإغريقية والحضارة المسيحية . واهتمت الحضارة الأغريقية للمحافظة على كرامة الإنسان ضمن نطاق الحكم السياسى . وهذا الإتجاه سليم وثمين ، وهو فى قرارة مفاهيم الديمقراطية الحديثة . أما الحضارة المسيحية فقد استهدفت الانسان ، اذ أن الانسان هو الغاية من وجود الدولة . والنظرة المسيحية جعلت قيمة كبيرة لشخصية الانسان . فالناس أولاد الله، ووارثو الحياة الأبدية . لذلك وجب أن يعاملوا بكرامة واحترام .

المسيح والدولة :

لم يعطِ المسيح تعليمات محددة ولا خططاً مرسومة ومعينة لشكل الدول . انه لم يرض أن يقيم نفسه حاكماً للناس أو مستشاراً للحكام . فعند اعلان دعوته لم يهتم كثيراً بالدولة الحاكمة لانه لم يعتبرها معادلة لملكوت السماء الذى دعا اليه . وكانت نظرة المسيح إلى الممالك الارضية بأنها لاتدوم إلى النهاية، فهذه لا بد لها من أن تزول متى سادت مملكة الله على الارض. ولم يظهر المسيح فى حياته الارضية عداوة للدولة

بل عاش عيشة المواطن المثالى، وحسبها مؤسسة وقتية دنيوية، فى حين أن الملكوت السماوى الذى دعا اليه كان ملكا أزليا دائما .

ولم يؤيد المسيح فكرة الوطنية المتطرفة. وهذا مايتراءى لكل من يدرس سيرته. فهاهو يدخل أورشليم راكبا على أتان ورافضا أن يجارى الفاتحين فى دخولهم المدن على ظهور الخيول، كما كانت العادة أثناء مواكب النصر. قد ركب أوضع الحيوانات وسار فى طريق مجده الروحانى لا الأرضى

ونجد فى العهد الجديد تحديدا للمسالك التى يترتب على المسيحيين أن يسلكوها تجاه الدولة ، فقد قال المسيح « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

وها هو الرسول بولس يقول « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لانه ليس سلطان إلا من الله» (رومية ١٣: ١). و يقول بطرس أيضاً « ينبغى أن يطاع الله اكثر من الناس » (اعمال ٥ : ٢٩) .

و يبدو أن الكثيرين من المسيحيين فى التاريخ الماضى لم يفهموا تماماً موقف المسيحية من الدولة، مما جعل اصحاب السلطة يعتبرونهم أعداء. ولو فهم المسيحيون قصد المسيح عن ملكوت الله لاستطاعوا أن يتجنبوا الكثير من الاضطهاد الذى وقع عليهم على مدى الاجيال. وقد كانت وصية الرسل، وجاراهم آباء الكنيسة فى هذا ، بأن يخضع الناس للحكام وأن يقبلوا بالترتيبات والانظمة ما دامت لا تعاكس مشيئة الله، ولا تستهدف دمار البشرية .

وعلى مدى الاجيال ظهر بين صفوف المسيحيين بعض الافراد الذين دُعوا لدعم ملكوت الله على الارض . فهذا القديس أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » يرسم للمسيحيين الدولة السماوية التى يجب أن يتوقعوا مجيئها.

ونادى « سافانارولا » بالمسيح ملكا يحكم على بلاده، ورغب « كرومول » وجماعته

من الطهورين أن يجعلوا مملكتهم ترتكز على القداسة والطهارة والحياة المسيحية المجردة عن كل شيء عالمي . وفي كثير من الحالات لم يستطع المسيحيون أن يمتزجوا مع العالم الوثني ، لأن القوى التي تدير تلك الحكومات كانت قد دخلتها عناصر وثنية ، ولما كانت تلك الأوضاع مقاومة للمسيحية ، كان موقف المسيحيين محرجا وخطيراً .

ان المسيح لم يضع قواعد محددة وتعليمات معينة كما أشرنا سابقا ، تعيّن علاقاتنا بالدولة . على أن علاقة المسيحي بالدولة يجب أن ترتكز على تصرفات السيد وعلى تصريحاته ومن سيرة حياته . كما انه في الوسع الاعتماد على أقوال وردت في الرسائل التي كانت لسان حال رسله الاطهار ، وتلاميذه الاوفياء الذين أذاعوا بشارة انجيله للعالم .

ويتضح لنا بان المسيح كان دوماً يشجع الخضوع للسلطات الحاكمة لضمان النظام في المجتمع . وقد رفض أن يجعل نفسه ملكاً أرضياً لأنه تطلع إلى مملكة أبيه السماوي .

وقد جعل هذا الملكوت السماوي رجاء المسيحيين النهائي ، يأتي متى تحين مشيئة الله . بيد انه في خلال ذلك فُرض على المسيحيين أن يكونوا موالين للدولة ، وخاضعين للحكام والسلاطين .

لم يدعُ المسيح إلى شكل معين من الحكم . فهو لم يقل أن الدولة المثالية يجب أن تكون ملكية أو ديموقراطية أو ثيوقراطية ، بل كان همه الأوحد أن تسير الدولة على مبادىء انسانية فيها تتجسم الفضائل المسيحية ، وتحقق مبادىء الاخوة والمحبة للمواطنين .

ورب معترض يقول ان قيام مثل هذه الدولة المثالية ضرب من المحال لأن القوة لا المحبة هي المعول عليه في الحكم . لكن رجاء المسيحيين هو انه متى تحققت مملكة السماء على الأرض ، فعند ذاك تكون للفضائل المسيحية المقام الاسمى . وبهذا يسود السلام ويعمّ الاخاء بين البشر . وتدفعنا المسيحية بأن نؤمن

بروح الله الخيّرة وبعناية القوة الالهية التى تحقق لنا هذه الدولة المثالية المشبعة بروح الخير والحق والكمال .

تأثير المسيح على الناس :

كان تأثير المسيح على حياة الناس كبيراً وعظيماً . فقد تجددت حياة الكثيرين بقوة تأثير تعاليم المسيح عليهم . وقد جاء التجديد عند البعض بطيئاً فى حين انه كان عند الآخرين عنيفاً وسريعاً . ومهما كان نوع التجديد فالكثيرون تذوقوا فى حياتهم ثمار الروح عن طريق المسيح . ولم يقتصر تأثير المسيح على الافراد بل تعداه إلى الجماعات .

فالناس مهما اختلفت ألوانهم ومشاربهم هم فى نظر المسيح أبناء الله ووارثو الحياة الابدية. لذلك وجب أن يُعاملوا باحترام . وكان لهذه النظرة الأثر البعيد فى اصلاح حياة الناس ، وفى قيام المؤسسات العالمية ، ومبرات الاحسان ، والجمعيات الخيرية ، والمشاريع الانسانية التى تستهدف خير الانسان وراحته وهناءه . والسر الرئيسى لقوة المسيحية هو شخص الرب يسوع الذى ظل طيلة الوقت ومنذ تجسده ، يعمل العجائب فى حياة الناس . فانجيله كان بمثابة اكسير للحياة يطهر الافكار، ويرفع النفوس ، ويثير الخيال، ويلهم الايمان ، ويوطد الرجاء ويشيع المحبة .

ولم تتقدم المسيحية لتغزو الدولة الرومانية ، ولكن أخضعتها بمبادئها . ولم تتقدم لتكوين مجتمع موحد أو لخلق منظمة عالية ، ولكن حققت كنيسة المسيح ذلك عن طريق بث الدعوة واظهار محبة الله الفائقة للناس . وعلينا أن نزود روح المسيح بكل الوسائل التى فى قدرتنا ليتسنى لهـا أن تعمل عملها الصالح فى عالمنا ، وتخمر العجين بخميرتها الفعالة الحية . وواجبنا أن نُبقى تلك الاضواء مشتعلة ، ليظل نور الانجيل مشعاً وساطعاً فى كل مكان

مسؤولية المسيحى كمواطن :

تختلف مسؤولية المسيحى كمواطن فى بلاد عن بلاد ، بيد أن هذه المسؤولية فى لبابها متشابهة لانها تنبع من المحبة المسيحية التى تفرض علينا أن نعامل قريبنا كأنفسنا وجيراننا كأخوان لنا فى البشرية . وكذلك فان هذه المسؤولية تشتق من اعتقادنا ان الله هو رب هذا العالم، وهو رئيس جميع المؤسسات، وسيد كل الجماعات والأفراد . ورغبة الله هى أن يعيش البشر فى ظل أنظمة سياسية مستقرة تستهدف العدل الانسانى والنظام والحرية .

لم يضع الله الناس فى هذه الدنيا بدون غاية. بل أن الغاية التى خلق الله الانسان من أجلها هو أن يعمل مشيئة ربه ، فيدأب للسعى لترقية عالمه ، وللعيش مع أخيه بسلام، ولقيادة اخوانه إلى أعتاب دنيا جديدة. وهذه المسؤولية ملقاة على رجال الحكم وأصحاب الرسالات ، لان مستقبل الانسانية ومقدرات الأمم والشعوب موكولة إلى أيدى هؤلاء القادة .

ولما لم يكن العهد الجديد كتاباً سياسياً يوضح للمسيحيين فى مواكب التاريخ شكل الدولة التى يجب أن يخضعوا لها، فقد خلق لهم ذلك مشكلة لاسيما وانهم كانوا يعيشون فى أوضاع تخالف مبادئها المبادىء التى نص عليها الانجيل . وهكذا فمنذ البدء والمسيحيون يواجهون مشكلات المواطنة المسيحية . وعندما كانوا يجدون أن لا سبيل للتسوية والاصلاح، نزعوا للابتعاد عن المجتمع بالتجائهم إلى الاديرة وطرق التنسك والقبوع فى صوامعهم .

أما فى القرون الوسطى فقد كان للكنيسة تأثير كبير على حياة الناس الاجتماعية والسياسية. الا انه مع ظهور روح القومية الحديثة برزت أوضاع جديدة أمام الكنيسة مما حملها على أن تعيد النظر فى موقفها ومسؤوليتها تجاه الدولة. وتلك الشعوب التى كانت

مهملة ومستغلة فى الماضى أخذت تستفيق لحالها وتطالب بحقوقها . كما أن العالم أخذ يتبدل و يتغير بسرعة فائقة . فتناولت هذه التغيرات الاوضاع الاجتماعية والمؤسسات السياسية وكل نواحى حياة الانسان. وهذا جعل الموقف يتغير و يتطلب اهتماماً زائداً من المسيحيين ومضاعفة مسؤولياتهم تجاه هذا الأمر الخطير .

المسيحى والمواطنة الصحيحة :

وفى وسع المسيحى أن يضع الخطوط الكبرى التالية كأساس للمواطنة الصحيحة ، وتعتمد هذه المبادىء على تعاليم الكتاب المقدس ، وترتكز على حياة المسيح ومبادئه :

(أولاً) الايمان بالله الذى أعلنه يسوع المسيح للبشر بأن الله هو سيد التاريخ ورب الشعوب وأن قصده هو الخير للجميع .

(ثانياً) الاخذ بالوصية العظمى عن المحبة وهذه تشمل كرامة الانسان ، ومحبة جميع الناس ، والعمل على تحسين أوضاعهم وتقديم الخدمات لهم ، واعتبار كل انسان عضواً حياً فى هذا المجتمع ، وان روحه تتأثر بكل ما يحصل لجسده .

(ثالثاً) الاعتراف بخطئنا إذ أننا جميعنا نشترك مع دولنا فى المآثم عندما نسير فى ركابها ساعة نهتم بمصالحنا ونتغاضى عن مصالح جيراننا ، ونثير الحروب ونبذر بذور الكراهية والبغضاء بين صفوف الناس بسبب روح القومية المتطرفة.

اننا كمسيحيين مدعوون لأن نساهم فى دعم هذه الامور التى تنص عليها مبادىء ديننا . علينا أن نقدم للدولة ماهو ضرورى لوجودها واستقرارها .

وعلينا كأفراد وكجماعات أن ندوى بأصواتنا مع نبى العهد القديم الذى قال « البر يرفع شأن الامة وعار الشعوب الخطية » ، فيجعل الدولة تفهم ذلك وتسير دوماً على مبادىء الخير والحق والعدل والكمال .

وربما كانت هذه القصة التى نوردها فى ختام هذا البحث أحسن توضيح لتحديد علاقة الدولة بالكنيسة . فقد رُوى عن أستاذ انه طلب من تلاميذه أن يوضحوا له بالرسوم علاقة الكنيسة بالدولة فرسم أحدهم علماً ولم يعرف أين يضع الصليب. وجاء ثان فرسم الصليب وحار أين يضع العلم !! والمعروف أن العلم هو رمز للدولة ، والصليب هو رمز للكنيسة . وكأن الأول شاء أن تعمل الدولة منفردة ، فى حين أن الثانى شاء أن تعمل الكنيسة منعزلة عن تأثيرات الدولة .

وجاء تلميذ ثالث فوضع العلم فوق الصليب دلالة على أن الدولة يجب أن تسيطر على الكنيسة . وكان الرسم الذى نال اعجاب الاستاذ هو لتلميذ رابع أخذ العلم وركزه على ذراع الصليب ، وجعله على خط مواز له ، اشارة إلى أن الدولة والكنيسة يجب أن تتعاونا فى حمل رسالة الخير والصلاح إلى العالم .

هذا هو موقفنا كمسيحيين فى أوطاننا ، أن نكون مع الحكومة القائمة فى ولاء واخلاص وتعاون وثيق فى سبيل الخير والحق والعدل .

يسوع والأسرة (١)

(للأستاذ مرقس فهمى فرج ، مدرس أول بوزارة التربية
والتعليم، وعضو رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الادنى)

موقف يسوع بإزاء الزواج :

لقد كان يسوع يقدر تمام التقدير ما هى الصداقة ، كما أنه يثق فيها وفى تأثيرها، ومن ثم كان ينظر إلى هذه الرابطة البشرية نظرة رفيعة سامية — هذه الرابطة التى تعبر أكمل تعبير عن ذاتها فى . . الصداقة ! ولقد أوضح يسوع هذه المعانى فى غير تحفظ ، لذلك يجدر بنا أن نتذكر ما يشير إليه الأستاذ « بيبودى »(٢) من « أن هذه هى الناحية الوحيدة للحياة الاجتماعية التى من أجلها يخرج يسوع عن عادته من وضع المبادىء العامة ليسن شريعة محددة خاصة » . فمن جهة الأمور السياسية التى كانت تتعلق بالعصر الذى عاش فيه يسوع ، كان يسوع يشير إليها لكن فى مبادىء عامة ، لا عن رهبة (٣) ، فقد كان عزم المسيح المحدد هكذا : « أن لا يدخل » — كما يقول الأستاذ سيلى(٤) :— «فى النزاع مع السلطة المدنية». لذلك رفض التحدث بتفصيلات واسعة عن هذه الواجبات المدنية ، أما عن مسألة العلاقات الزوجيـة فان يسوع لم يمالك نفسه عن التحدث فى غير خشية أو إحتياط حديثاً ليس فيه شىء من اللين أو التسامح ، مرحباً — فى نفس الوقت — بالأسئلة التى كان يطرحها عليه الفريسيون (٥) والصدوقيون(٦) عن هذا الموضوع، فأجابهم إجابة من القوة ومن الصرامة بحيث « لما سمع الجموع بهتوا من تعليمه »(٧) .

[١] إن يسوع لم يقل قط إن الزواج واجب يلزم أداؤه فانه هو نفسه لم يتزوج:

---

(١) عن كتاب « مبادىء يسوع » للبحاثة « روبرت سبير » .

(٢) Professor Peabody. (٣) لوقا ١٣ : ٣٢ (٤) Prof. Seeley.

(٥) متى ١٩ : ٣ (٦) متى ٢٢ : ٢٣ (٧) متى ٢٢ : ٣٣

إن بعض الناس لا يقصدون إلى الزواج ، إذ قد تكون هناك أسباب بدنية خاصة تتعلق بالطبع و بالمزاج ، أو بالوراثة، فتحول هذه الأسباب دون الزواج، وفى حالات أخرى يتطلب الموقف من الناس أن يضحوا بامتياز الحياة الزوجيـة فى سبيل الخدمة التى لا يتفق معهـا الزواج[1] . ألم تكن هذه هى الحال مع بولس ؟

[٢] مع ذلك فقد علم يسوع الناس أنهم بدخولهم فى دائرة الزواج إنما قد إرتبطوا بحياة متحدة حقة ، « من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، و يكون الاثنان جسداً واحداً . إذن ليسا بعد إثنين بل جسد واحد »[2] .

يقول الأستاذ « بروس »[3] : إن الكلمة « جسد » ـ فى تفكير العبرانيين تمثل الإنسان بأكمله . فوحدة الزواج المثالية تشمل الطبيعة كلهـا ، فهى وحدة النفس كما أنها وحدة الجسد ووحدة المشاركة الوجدانيـة والإهتمام والهدف . على أن من المؤكد أنه كذلك، وإلا صار الزواج مجرد علاقة بهيمية، أما الإتحاد الحقيقى فهو إندماج الطبائع ونفوذها الواحدة فى الأخرى إندماجاً تاماً ونفوذاً كاملاً . « كما يصطبغ الجسد بلون الكركم » . وتتضح وجهـة النظر المسيحية فى أفسس[4] حيث يعترف بولس أن السر عظيم لكنه مجيد .

[٣] وهذا الإتحاد فى مبدئه وفى إمكانيته ضرورى جداً بحيث أن يسوع صرح بأنه لا يمكن فصم عراه ، حتى إن « كل من طلق إمرأته وتزوج بأخرى يزنى »[5]

هذا هو تحريم المسيح للطلاق تحريماً قاطعاً . ولقد عالج هـذا الموضوع فى عظته على الجبل منادياً بنفس هذا المبدأ تماماً مع إشتراط واحد[6] . هذا المبـدأ قد لا يصادف هوىً من الناس، وقد يصفونه قائلين إنه مبدأ متزمت صارم، موغل فى التزمت والصرامة . نعم ، قد يصرح القانون المدنى بالطلاق لأسباب عدة ،

---

(١) متى ١٩ : ١٢ (٢) متى ١٩ : ٥ و ٦ (٣) Professor Bruce

(٤) أفسس ٥ : ٢٥ — ٣٣ (٥) مرقس ١٠ : ١١ (٦) متى ٥ : ٣٢

لـكن نظرة يسوع إلى الطلاق باقية كما هى، فقد إعتبر الزواج إتحاداً لا إنفصام لعراه.

[٤] هذا ، والمتأمل فى تعليم يسوع يجد أنها تضرب بعرض الحائط كل علة أو حجة لتبرير تعدد الزوجات :

فزوج واحد ينتمى إلى زوجـة واحدة، حتى إن مجرد نظرة الرجل أو إشتياقه إلى إمرأة أخرى تكفى لإتهام يسوع إياه بارتـكابه الزنى فعلاً فى قلبه(١) . فإذا جاز لإبن أن تكون له والدتان اثنتان ، أمكن للزوج أيضاً ــ فى نظر يسوع ــ أن تكون له زوجتان إثنتان . فهى مثل العلاقة بين الإبن وأمه من حيث أنها علاقة حيوية عضوية(٢) . أما الحجج التى يدلى بها بعض العلماء محاولين بها أن يثبتوا إحتمال اباحة الـكنيسة الأولى لتعدد الزوجات ــ هذه الحجج قد نقضت نفسها بنفسها ، بل إنهارت عندما تصدى أولئك العلماء إلى إثبات وجود تعدد الأزواج(٣) والبرهنة على ذلك بهذا السياق نفسه.

[٥] ونظرة يسوع إلى الزواج تتخذ منه دستوراً أساسياً للمجتمع ، لا مجرد وسيلة للهو واللذة :

غير أنه يوجد قوم لا يعترفون بهذا، ولا يقصدون إلى أن يتعلموا نبل الدروس من نظرة يسوع إلى الزواج على هذا الأعتبار ــ وهى دروس سداها الإحترام والكرامة ولحمتها التسامح وسعة الصدر ــ ما دام الطلاق بين الرجل والمرأة أسهل وأيسر من أن يصلح الواحد منهما من ذات نفسه . غير أن المحبة فى الزيجة وخارج الزيجة هى تدريب، ليس للاهواء والتخيالات ،بل للارادة والمشيئة .

[٦] ولا نستطيع أن نعتقد أن تعليم يسوع عن الزيجة قد حدَّ منها وجعلها داخلة فقط ضمن قيود الحياة الجسدية :

فان إتحاد النفس ــ كاتحاد الجسد هذا ــ لا بد أن يبقى خالداً بعد موت الجسد.

---

(١) متى ٥ : ٢٧ — ٣٠ (٢) متى ١٩ : ٤ — ٨

(٣) أى إباحة تزوج المرأة بأكثر من رجل واحد فى وقت واحد.

وكلمات يسوع فى متى[1] وفى لوقا[2] لا تتضمن محو كل الصفات الروحية السامية لاتحاد الحياة وإئتلافها .

فاذا كانت سجايا الخلق خالدة ، فان أئتلاف هذه السجايا الخلقية واتحادها يجب أن يكون خالداً كذلك . ولعل الحق فى جانبنا حين نرحب بالتوضيح الذى بسط فيه « براوننج »[3] كلمات يسوع حين قال :

« إن الزواج على الأرض يبدو بهرجة زائفة ،
« لمحاكاة ما لا يمكن محاكاته ،
« ففى السماء لنا فقط ما هو حقيقى، صادق ، وأكيد ،
« إذ هناك لا يزوجون ، ولا يتزوجون ،
« لكنهم كالملائكة ، وهذا حق ،
« وكم هو حق ، وكم هو خليق بيسوع المسيح
« أن يقول قولته تلك ! زواج أرضى ،
« قائم على مقدار كذا من الذهب والحسب ، والجاه ، والصيت ،
« أو ينقصه كذا من الجمال ، ومن الشباب !
« فليكن . نحن بالأحرى كالملائكة ، والذين ـ وهم فرادى ـ
« يعرفون أنفسهم متحدين فى واحد ،
« يوجدون أخيراً متزوجين ، لكنهم لا يزوجون ، لا ، ولا يتزوجون ، هم رجل ، وزوجة فى الحال
« عند ما يؤون الأوان ، أما نحن هنا فعلينا أن ننتظر .
« لكن دون أن ننتظر طويلاً ! » .

موقف يسوع بازاء المرأة:

لما حمل بولس الإنجيل للعالم ، ترجمه بقوله : « ليس فى المسيح ذكر ولا أنثى[4] ». فالامتياز مشترك بينهما ، ولا يوجد حد فاصل بين الجنسين باعتبارهما شريكى

(١) متى ٢٢ : ٣٠ (٢) لوقا ٢٠ : ٣٤ — ٣٦ (٣) Browning (٤) غلاطية ٣ : ٢٨

نعمة الله. ولقد أصاب بولس كبد الحقيقة حين أوضح فكر يسوع من نحو هذا الموضوع، لأن المسيح لم يدخل فى إعتباره نقصاً ما من جهة المرأة ، كذلك لم يبد إشارة ما إلى ذلك، بل إنه لم يسلم بمثل هذا النقص فيها ، إذ كان يعاملها دائماً على قدم المساواة مع الرجل.

[١] فلقد عامل النساء كما عامل الرجال سواء بسواء :

إن يسوع قد تحدث إليهن[١] و بصرف النظر عن مركز المرأة فى البيئات الأخرى نجد أن اليهودى إذا تحدث إلى إمرأة كان بذلك سالكاً طريقاً لا تتفق مع سلوك فقهاء الدين عادةً ، وهم الذين كانوا يصرحون قائلين: بان إلقاء نصوص الناموس فى النار أفضل من إيصالها إلى النساء » ـ لكن يسوع إتخذ من بينهن صديقات له[٢]:فأجاب عن أسئلتهن[٣] وأزال دهشتهن[٤]، وقابل بعطفه عطفهن[٥] « إنه قد أتاح لقوى المرأة مجالاً فى كل وصية من وصاياه ، » . إنه شفى النساء[٦] ومدح أيمانهن[٧] ، إنه ـ بفضله فى أفكار محبته وفى إمدادات زاده ـ قد شملهن[٨]

[٢] لقد كانت تعاليم يسوع ، كما قال بولس ، من المرونة ومن الإتساع، ومن الواقع ـ فى الحياة البشرية ـ بحيث إختفت معها كل تفرقة[٩] :

فان يسوع لم يعلِّم إلا الحق لقلوب الناس، وليس لنا أن ننتظر من الحق إلا أن يثبت صدق ذاته فى كونه يكشف عن إتحاد قلوبنا . « لقد رفع يسوع المسيح المرأة إلى مكانها الذى تستحقه ، باعتبارها مساوية للرجل ، وذلك ليس بمرسوم أصدره ، فأوقف به ضعتها وخضوعها، لكن بإعلانه الله للناس فى حقيقة سجاياه، وبجعل علاقتنا بالله علاقة ود تائق ، كما أنها علاقة حب مقيم .. ولقد قدم يسوع الإنجيل لنا فى قوة الرجولة وفى لطف الأنوثة ـ فى وقت معاً ـ بحيث أن المساواة بين الجنسين فى أهم الشئون يجب إقرارها والتسليم بها فى الحال، أما الشؤون الثانوية الأخرى

---

(١) يوحنا ٤ : ٢٧ ، لوقا ١٠ : ٣٨ (٢) لوقا ١٠ : ٣٨، يوحنا ١١ :٥ (٣) يوحنا ٤ : ٩ - ١١ (٤) لوقا ١١ :٢٧ (٥) لوقا ٢٣ : ٢٨ (٦) لوقا ٨ : ٢ (٧) متى ١٥ :٢٨
(٨) متى ١٥ :٣٨ (٩) غلا ٣ : ٢٨

التى للمرأة ، فقد تركها تأخذ طريقها إلى التنفيذ إن آجلاً أو عاجلاً »[1] .

[٣] لقد كان يسوع أشفق الجميع وأكثرهم حناناً على النساء :

فمد إليهن يد العون باستمرار[2] ، وتحدث عنهن دائماً حديثاً سخياً[3] ، دون أن يتخذ من المرأة مثالاً لغير صفات النبل[4] . إنه مدح خدمة المحبة التى قامت بها إحدى النساء من نحو الله[5] ، وقد أشاد بذكر إمرأة ثانية وذلك من أجل عواطف محبتها التى أظهرتها فى إسراف باهظ[6] ، كذلك أشاد بذكر إمرأة أخرى لحنانها وثقتها فى بساطة قلب[7] ورفع من إهتمام إمرأة رابعة لتفكر فيما هو أسمى من شؤون منزلها[8] .

[٤] ولقد رددت النساء صدى معاملة يسوع النبيلة لهن[9] :

فاتبعنه[10] وخدمنه من أموالهن[11] ، ولم تفه واحدة بكلمة خشنة ، ولم تتنكر له أو تنكره إحداهن[12] ووقفن معه عند صليبه ، وكن آخر من إنصرف عنه[13] ، بل كن أول من ذهب إلى قبره[14] ، وكن أول شاهدات بقيامته[15] وأول أبواقه[16] وفى ذلك يقول الدكتور ر . ا . طمسن : « ان المرأتين الوحيدتين اللتين لم ينطويا قط تحت نطاق تأثيره هما هيروديا وإبنتها » .

[٥] إن يسوع لم ينظر إلى المرأة كما لو كانت تحت قانون أدبى وأخلاقى يختلف عن القانون الذى يخضع له الرجل :

فالخطية التى يغتفرها الرجل للرجل والتى يدينها الرجل فى المرأة هى هى الخطية

---

(١) ترى ، هل لك أن تذكر عشر وصايا للمسيح ، وأن تذكرها عن عفو الخاطر — وتنظر إذا لم تكن هذه الوصايا لاتسرى على الرجال وعلى النساء سواء بسواء ، وهكذا تقوم عليها المساواة بينهما .

(٢) لوقا ١٣ : ١١ (٣) لوقا ١٨ : ١ - ٨ (٤) ترى ، ماذا تذكر عن إتخاذه الرجال أمثلة لصفات غير نبيلة ؟ (٥) لوقا ٢١ : ١ — ٤ (٦) مرقس ١٤ : ٣ (٧) لوقا ٧ ٠ ٣٧ — ٥٠ (٨) يوحنا ١١ : ٢١ — ٢٧ (٩) مرقس ١٤ : ٣ ، لوقا ٧ : ٣٦ - ٥٠ (١٠) لوقا ٢٣ : ٤٩ (١١) لوقا ٨ ٢٠ و ٣ (١٢) لوقا ١١ : ٢٧ ، ٢٣ : ٢٧ (١٢) يوحنا ١٩ : ٢٥ ، لوقا ٢٣ : ٤٩ (١٤) لوقا ٢٣ : ٥٥ ، ٢٤ : ١ (١٥) يوحنا ٢٠ : ١ — ١٧ (١٦) يوحنا ٢٠ : ١٨ ، لوقا ٢٤ : ١٠

التى يدينها يسوع فى الرجل وفى المرأة سواء بسواء . لقد عامل نساء خاطئات ، لكنه لم يسلك فى معاملته ازاءهن مستخفاً بأسمى المقاييس الأدبية . نعم لقد سامح الخطية، لكنه لم يتسامح فيها فقط. وحضه على الطهارة قد ألزم الجميع بالقداسة[1].

[٦] ولقد كان يسوع ، فى التعليم الذى نادى به ، وفى المثال الذى كانه ، بعيداً كل البعد عن التساهل الضعيف ، وعن العتو الطاغى :

إنه لم يسلم للمرأة — لمجرد كونها إمرأة — بأن يكون لها الحق فى أن تكون حمقاء ، أنانية ، كما أنه لم يسلم للرجل ـ لمجرد كونه رجلاً ـ بأن يكون له الحق فى أن يكون متسلطاً فى غطرسة وتعجرف. وهاهى التطويبات المثالية تشملهما كليهما، نعم، وهما كلاهما تحت ناموس الخدمة، كتلاميذ لذاك الذى أتى لا ليُخدم ،بل ليخدِم[2]

موقف يسوع بازاء الأولاد

لقد كان يسوع نفسه طفلاً ، وديانته هى الوحيدة ـ بين جميع الديانات ـ التى تعير اهتماماً خاصاً بطفولة مؤسسها . ومما وصل الى علمنا نستطيع أن نقرر أنه لم يرِدْ قط على لسانه ذكر أى شىء عن ميلاده أو يفاعته، مع أن بشارتين اثنتين بين البشائر الأربع ، قد اختصتا برواية قصة ميلاده[3] . ومع ذلك فقد كان هو طفلاً فى جميع أيامه ، وديانته هى تمجيد روح الطفل .

[١] وأفكار يسوع عن الأطفال مبينة فى هـذه الحقيقة بالذات : ان الرجال يجب أن يعودوا الى طفولتهم :—

نعم ان الرجال يجب أن يعودوا أطفالاً قبل أن ينتظموا فى سلك ملكوته[4] فان روح ملكوته هى روح الطفل[5] .

[٢] ولقد أحبَّ يسوع الأطفال الصغار حباً جماً :—

لذلك اقترب الأطفال من يسوع بثقة غريزية ، وأحضرتهم أمهاتهم اليـه

---

(١) يوحنا ٨: ١—١١ (٢) مرقس ١٠: ٤٥ (٣) متى ١ و٢ ولوقا ١ و٢ (٤) متى ١٨: ٣ ، مرقس ١٠ : ١٥ (٥) متى ١٨ : ٤

وكلهن اتكال عليه[١] ، حتى انه وبخ تلاميذه توبيخاً لما ثبطوا عزيمتهم هذه[٢] ، وقد استغاث الرجال به لأجل أطفالهم ، دون أن يتوجسوا منه خيفة ما[٣] ، وقد علمت الامهات أن صدّ يسوع لتوسلاتهن من أجل فلذات اكبادهن — وهم موضوع محبتهن — إنما كان يقصد من ورائه أن يعلمهن كيف يحتملن هذا الرفض[٤] .

[٣] ولقد كان يسوع دائم التفكير فى الأطفال : —

انه عرف حب الآباء الذى لا يستطيع أن يمنع العطايا الطيبة عن الطفل[٥] ، حتى لقد قال ان من أشنع شنائع القسوة الناجمة عن عدم الايمان أن يقود الأب ابنه ليسلمه الى الموت ، كما أن من أشنع القسوة الناجمة عن عدم الايمان أيضاً ، أن يشق الابناء عصا الطاعة فى وجه والديهم وأن يقتلوهم[٦] . ومن أصدق اختبارات الايمان استعداد الارادة أن تفضل المسيح على فلذة الكبد[٧] ، ومن أثمن مكافآت الايمان الازدياد المفرح فى محبة الأطفال وفى بهجتهم[٨] ، حتى لقد أتى ذكر الاطفال فى أمثال يسوع مصداقاً لهذه الحقيقة[٩] ، ووقوعها عليهم وعلى أولادهم[١٠] ، أجابهم يسوع بأن الأولى بأولئك اللواتى كنَّ يبكين عليه ، أن يبكين على أنفسهن وعلى أولادهن ، فلذات أكبادهن ، ذلك لان يوم الدينونة الآتى سريعاً على أورشليم برعبه وهوله ، إنما سيكون كذلك للآلام الفظيعة التى سيخلّفها للطفل الصغير ، كما سيخلّفها أيضاً لأولئك الذين أحبوا هذا الطفل الصغير[١١] .

[٤] وفى دستور مملكته ربط بين ذاته وبين الاطفال الصغار : —

فعندما استعرض يسوع نقاش تلاميذه فيمن عسى أن يكون عظيما بينهم ، أخذ طفلا صغيراً واحتضنه بين ذراعيه قائلا : من قَبِل واحداً من أولاد مثل هذا

---

(١) متى ١٨ : ٢ و١٩ : ١٣ (٢) مرقس ١٠ : ١٣ و١٤ (٣) مرقس ١٥ : ٢٣
(٤) مرقس ٧ : ٢٤ — ٣٠ (٥) متى ٧ : ١١ (٦) متى ١٠ : ٢١ ، مرقس ١٣ : ١٢
(٧) متى ١٩ : ٢٩ (٨) مرقس ١٠ : ٣٠ (٩) لوقا ٧ : ٣٢ ، ١١ : ٧ (١٠) متى ٢٧ : ٢٥ (١١) لوقا ٢٣ : ٢٨

باسمى يقبلنى »[1] ، ولا يمكن أن تطاق العثرة ضد الصغير ، طفلا كان هذا الصغير أم تلميذاً[2] .

[٥] ولقد نظر يسوع الى تلاميذه كأولاد[3] :—

اذ كانت له السجية الحلوة التى تربح صداقة الاطفال الواثقة ثقة نبيلة بريئة ، وذلك بالانغماس فى رفقتهم . وقد وجه حديثه الى تلاميذه داعياً إياهم : « يالبنين »[4] ، و « القطيع الصغير »[5] ، و « الغلمان »[6] ، ولكم اشتاق ان يجعل من بنى أورشليم بنين له ، وأن يأويهم وأن يريحهم ، وأن يجمعهم تحت ظله فى صعيد واحد كما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحيها[7] . وفى الأمسية الاخيرة التى قضاها يسوع مع تلاميذه ، قبيل الغدر به ـ أى بعد خروج يهوذا ، وعندما آن أوان الكلمات الوداعية التى ضمنها نصيحته الاخيرة فى رفق وفى حب ، بدأ بقوله : « يا أولادى » ـ وهى كلمة من الرقة ومن اللين بحيث لم يرد لها ذكر فى العهد الجديد اكثر من مرة واحدة فقط ، وكان ذلك على لسان بولس فى نداء له يفيض حرارة وتوسلا[8] ، ثم فى رسالة يوحنا الاولى ـ حيث تبدو كما لو كانت صدى لرنين الكلمات التى جاءت على لسان السيد فى الامسية الاخيرة : « يا أولادى . . أيها الأولاد . . »[9] ففى هذه الامسية بالذات أخبرهم يسوع أنه لا يستطيع أن يذهب ويتركهم يتامى ، بل سيأتى اليهم ثانية[10] .

[٦] لقد كان دائماً ، بل سيكون على الدوام ـ حتى فى الديانات الوثنية ـ هذا الذى نسميه الحب الابوى الحقيقى ، لكن المسيحية وحدها تجعل للطفل منزلته ومكانته ، بل تجعل له أرفع منزلة وأسمى مكانة :—

---

(١) مرقس ٩ : ٣٣—٣٧ ، متى ١٨ : ٥ (٢) متى ١٨ : ٦ و١٠ و١٤ ، لوقا ١٧ : ٢ (٣) متى ١٨ : ١—١٤ (٤) مرقس ١٠ : ٢٤ (٥) لوقا ١٢ : ٣٢ (٦) يوحنا ٢١ : ٥ (٧) متى ٢٣ : ٣٧ ولوقا ١٣ : ٣٤ (٨) غلاطية ٤ : ١٩ (٩) ١ يوحنا ٢ : ١ و١٢ و٢٨ ، ٣ : ٧ و١٨ ، ٤ : ٤ ، ٥ : ٢١ (١٠) يوحنا ١٤ : ١٨ .

يقول الدكتور « ستوكر » : « إن يسوع قد رفع الطفولة ، ووضعها فى الوسط . . فاذا كان وقع الاقدام الصغيرة على درجات السلم ، وموجات الاصوات الخافتة — بمثابة موسيقى لنا ، بل ، إذا كانت ضغطات الانامل الصغيرة ولمسات الشفاه الرقيقة تستطيع أن تلهب فينا روح عرفان الجميل والصلاة ، فاننا مدينون بالاحرى بشمس الحياة هذه الى يسوع المسيح ! ! »

[٧] لكن إذا كنا مدينين بهذا المسيح ، فنحن مدينون له بما هو أعظم :

اننا نسىء اليه إن نحن ألحقنا الضرر بطفل صغير . . إننا ننكر محبته اذا نحن عاملنا الطفل الصغير فى برود . فالمخلص الذى كان هنا ، والذى ذهب ، هو هنا الآن فى كل واحد من قطيعه هذا الصغير . . حتى ان كل من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ ، لا يضيع أجره ، وأجره هو ابتسامة « يسوع — طفل الله المقدس »(١) .

موقف يسوع بإزاء الأسرة

كانت نظرة يسوع للزواج متصلة أوثق اتصال بنظرته الى الاسرة ، وهذا طبيعى ، فلقد كان ينتمى الى شعب الاسرةُ فيه نظام له أهميته ، بل ان يسوع جعل للأسرة مكانة أنبل وأرفع فى كنيسته . « فان تعاليمه اللاهوتية — فى سداها ولحمتها — يمكن أن نصفها بـ « تجلى » الاسرة ، حيث الله هو الآب ، والانسان هو ابنه ، ومن الآب الى الابن تنبعث الرسالة الثمينة عن المحبة الابوية » .

[١] هنا إذن اكبر مصداق على الحياة العائلية ، ونجد هذا واضحاً فيما أظهره يسوع عن قلب الله الآب ، كما نجده واضحاً كذلك فى الحياة البيتية المحبَّبة التى كشف عنها فى اللاهوت :—

فلقد كان دائماً يتحدث الى الله ، وعن الله ، باعتباره أباً — بكل الطرق البنوية

---

(١) متى ١٠ : ٤٢ وأعمال ٤ : ٢٧ و ٣٠

الحقة[١] ، ولم يعط تلاميذه إلا لمحـات عن علاقاتهما الطبيعية التى « بدون تكليف » ، كآب وكابن[٢] . وكابن قال انه انتهج طرق أبيه كما كان يراها هو[٣]، وتحدث اليهم عن السماء باعتبارها بيت أبيه[٤] ، وكل أسرة فى السماء وعلى الارض تأخذ اسمها وجمالها من أبوّته الالهية[٥] .

[٢] لقد كان دائماً يعين الناس و يساعدهم على زيادة أواصر المحبة العائلية[٦] ، وحياتهم الاجتماعية : —

فلقد قد حضر عرساً مع تلاميذه[٧] واستجاب إلى التماسات كان الدافع اليها حب الأبوة[٨] ، ولهفة الأمومة[٩] ، إنه كان كثير الاكتراث بشعور الوالدين[١٠] ، إنه وضّح النبضة الأولى التى تنبض بها قلب الضال عند ما ثاب الى رشده متلهفاً فى الحنين إلى « البيت » ، فقال بلسان هذا الابن الضال: «أقوم وأذهب إلى أبى»[١١] . ولـكم أبدع ابداعاً فى الصورة التى رسمها لقلب الآب فى محبته التواقة الغافرة[١٢] . و بالرغم من أنه كان بلا بيت فى اكثر خدمته الجهارية[١٣] ، فانه لم يقلـل من قيمة الحياة المنزلية أو من حرمتها ، بل أنه لما نشد الراحة في الأسبوع الأخير من حياته ، نشدها فى وسط عائلى وفى جو عائلى : هناك فى بيت عنيا . نعم ، وعند ما كان يسلم نفسه الأخير — تقريباً — وهو على الصليب ، انشغل بتدبير أمر أمه : « و ... أخذها التلميذ إلى خاصته[١٤] » . انه وضع ثقته فى البيوت، مع انه كان شبه شريد طريد ، لا بيت له ولا مأوى[١٥] ، انه قال ذات مرة عن الراعى الذى ذهب ليبحث عن خرفه انه أعاد الخروف الى « بيته » .حيث دعا جيرانه ليفرحوا معه[١٦]

---

(١) يوحنا ٢:١٦ ، ٥:١٧ ، ١٠:١٥ و١٧ ، ١١ : ٤١ ، ١٢ : ٢٧ و٢٨
(٢) يوحنا ٥ : ٣٥ ، ٥ : ٢٠ و٢٦ ، ٦ : ٥٧ ، ٨ : ٢٨ و٣٨ ، ١٧ : ٥ (٣) يوحنا ٥ : ١٩ (٤) يوحنا ١٤ : ٢ (٥) أفسس ٣: ١٥ (٦) لوقا ٩: ٤٢ (٧) يوحنا ٢: ١-١١ (٨) يوحنا ٤: ٤٩ (٩) لوقا ٧: ١١-١٥ (١٠) لوقا ٨: ٥١ (١١) لوقا ١٥: ١٨ (١٢) لوقا ١٥ : ١٨ (١٣) لوقا ٩ : ٥٨ (١٤) يوحنا ١٩ : ٢٧ ، ٢٠ : ١٠ (١٥) مرقس ٥ : ١٩
(١٦) لوقا ١٥ : ٦

بهذه الوقائع جميعها أظهر يسوع لنا موافقته على حياتنا العائلية ، وكما يقول الدكتور ر . ا . طمسن « إنه بتساميه بالصبر وبالغفران الى مرتبة الفضائل الأولى فى الملكوت ، قد سن شريعة جديدة للحياة فى البيت المسيحى » .

[٣] وبالرغم من أن عمل يسوع فيما بعد قد استلزم تجواله هنا وهنالك ، فانه قد شبّ فى بيت يهودى يعتبر من أفضل نماذج البيوت التى تجمع بين الفقر والتقوى: والذى لا مرية فيه أنه كان مدموغاً بفقر بيئته وضعة بيئته[١] . فلقد كان الناس يعيرونه بهما ، مع ذلك فلم يلفظ بكلمة واحدة يستدل منها على أنه ألقى بالاً لمثل هذه التهكمات التى لم تحظ منه الا بالازدراء التام ، وبالرغم من أن يوسف لم يكن أباه ، فلسنا نجد قرينة واحدة على أنه قال ذلك ، أو أنه حاول أن يتهرب من الروابط التى كانت تربطه بالوضع الذى كان هو فيه فى نظر الناس . ففى البيت كان هو كل ما يمكن أن يكونه ابن البيت[٢] . غير أن سلوكه هناك أظهر أنه لا يوجد الاّ شيئان اثنان لا ثالث لهما يحدان من طاعة الابن ، فقد قدم « ما لأبيه » على سلطان والديه[٣] ، وجعل واجبه نحو الله فوق مسئوليته من نحو أمه[٤] .

ولا بد أن التفكير فى هذا كان سبباً للتنغيص على يسوع ،والدلائل كثيرة على أنه اتخذ من تصدع العلاقة العائلية ،أفظع مثل للدمار الذى يمكن أن يحيق بالناس اذا هم رفضوا قبوله . ففى يسوع ترسخ العلاقات البشرية الى أشد ما يكونه الرسوخ ، وفيه تنبل هذه العلاقات الى أسمى ما يكون النبل[٥]

[٤] فالمحبة داخل البيت ضرورية للمحبة خارج البيت :

وهذه الحقيقة يؤكدها يوحنا تأكيداً شديداً فى رسالته[٦] . فما أكمل تعاليم يسوع عن المحبة وعن الثقة التامة فى الأسرة[٧] ! وفى ذلك يقول مؤلف كتاب :

---

(١) متى ١٣ : ٥٥ ، يوحنا ٧ : ٤٨ - ٥٢ ، ١:٤٦ (٢) لوقا ٢ : ٤٠ و٥١ و٥٢
(٣) لوقا ٢ : ٤٨ و ٤٩ (٤) مرقس ٣ : ٢٠ و ٢١ و ٣١ - ٣٥ (٥) متى ١٠ : ٣٦
(٦) ١يوحنا ٢ : ٩ ، ٣ : ١٤ ، ٤ : ٢٠ و ٢١ (٧) متى ٥ : ٢٢ و ٢٤ ، ٧ : ٣ - ٥ ، ١٨ : ١٥ و ٢١ و ٣٥ ، لوقا ١٢ : ١٣ و ١٧ : ٣

« هوذا الانسان »[1] : ـــ « عبثاً تطلب من إنسان أن يحب الجنس البشرى اذا هو لم يعرف عن الحب الا ما وصله سماعاً دون أن يحب هو آدمياً واحداً . ويجب أن ننظر بعين الاعتبار إلى أن المحبة العائلية من إحدى نواحيها تكاد تكون الأساس الذى لا غنى عنه قط للمسيحية » .

[٥] ولقد كان ليسوع همومه العائلية[٢] :

ومع ذلك فان هذه الهموم إنقلبت مباهج[٣] . وما فقده هو و إخوته إلى وقت قليل صار لنا نحن ربحاً ، إذ لنا فيه عربون لما يمكن أن تكون عليه الروابط العائلية الجديدة المباركة ، التى يجد فيها يسوع ما لم يجده فى أسرته هو[٤] .

(١) Ecce Homo (٢) يوحنا ٧ : ٥ (٣) كورنثوس الأولى ٩ : ٥ (٤) مرقس ٣ : ٣٥

اعضاء رابطة الكتاب المسيحيين

بالشرق الأدنى

١ — فرع مصر

الدكتور القس ابرهيم سعيد (رئيس)
الأستاذ حبيب سعيد (سكرتير)
الأستاذ جرمانوس لطفى (نائب رئيس)
الدكتور بطرس عبد الملك (امين صندوق)

القمص مرقص داود
الدكتور القس لبيب مشرقى
الدكتور عزيز سوريال عطية
القس طانيوس زخارى
الأستاذ مرقس فهمى فرج
الأستاذ عياد عياد
الدكتور عزت زكى
الدكتور جورج اسكندر
الأستاذ عوض سمعان

القس عمانوئيل مكارى
الدكتور مفيد ابرهيم سعيد
القس منيس عبد النور
القس الياس مقار
الأستاذ خليل جرجس خليل
القس عياد زخارى
الدكتورة وداد سعيد
الآنسة منيرفا عبيد

ب — فرع لبنان وسورية

القس الدكتور فريد عوده (رئيس)

الأستاذ ابرهيم مطر (سكرتير)

الأستاذ انيس الخوري المقدسي

الدكتور جبرائيل جبور

الدكتور انيس فريحه

القس جورج خوري

الاستاذ شاكر نصار

الارشمندريت اغناطيوس هزيم

الاستاذ جورج نقولا باز

الاستاذ خليل سركيس

الاستاذ فؤاد عقاد

القس داود متري



الكتاب السنوي

لرابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى

الكتاب الاول — ١٤ مقالة متنوعة

« الثانى — فجر المسيحية

« الثالث — ضحى المسيحية

« الرابع — المسيح ومشكلات العصر الحديث

مطبعة النيل المسيحية